The Socio – Political Issues in the Novels *"Al – zillul Aswad"* and *"Malikatul 'inab"* of Najeeb Al Keelani:

An analytical and critical study

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University

in partial fulfilment of requirements for

the award of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

MUHAMMAD ABDUL KAREEM K.T.

Under the supervision of

Dr. MUJEEBUR RAHMAN

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi – 110067

2012

القضايا الإجتماعية والسياسية في روايتي "الظل الأسود" و"ملكة العنب" لنجيب الكيلاني : دراسة تحليلية ونقدية

بحث جامعي قدم إلى جامعة جواهرلال نهرو لنيل شهادة

ما قبل الدكتوراه

إعداد وتقديم

محمد عبد الكريم كيه. تي

تحت إشراف

دكتور/ مجيب الرحمن

مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهرلال نهرو، نيو دلهي ١١٠٠٦٧

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

DECLARATION

27th July 2012

I declare that the dissertation entitled **"The Socio- Political Issues in the Novels *"Al-zillul aswad" and "Malikatul inab"* of Najeeb al Keelani: An Analytical and critical study"** submitted by me is in the partial fulfillment of the requirements of the award of the degree of **Master of Philosophy** of this university. This dissertation has not been submitted for any other degree of this university or of any other universities and is my own work.

MUHAMMAD ABDUL KAREEM K.T.
(Research Scholar)

Prof: Basheer Ahmad
(Chairperson)

Dr. Mujeebur Rahman
(Supervisor)

الإهداء

إلى أمي وأبي وعشيرتي.....

المحتويات

مقدمة ٣

الباب الأول: نجيب الكيلاني أديبا إسلاميا ١٣

المبحث الأول: الأدب الإسلامي ١٤

المبحث الثاني: حياة نجيب الكيلاني وشخصيته ١٩

المبحث الثالث: عصر نجيب الكيلاني الفكري وتأثير الإسلامية فيه ٢١

المبحث الرابع: الأدب الإسلامي عند نجيب الكيلاني أبعاده وآفاقه ٢٨

المبحث الخامس: مساهمات نجيب الكيلاني في الأدب الإسلامي ٣٧

الباب الثاني: القضايا الإجتماعية والسياسية في رواية ملكة العنب ٣٩

المبحث الأول: عرض المجتمع في الرواية العربية ٤٠

المبحث الثاني: المجتمع في الأدب الروائي لنجيب الكيلاني ٤٧

المبحث الثالث: رواية ملكة العنب دراسة تحليلية ونقدية ٥٢

المبحث الرابع: القضايا الإجتماعية في رواية ملكة العنب ٦٥

المبحث الخامس: القضايا السياسية في رواية ملكة العنب ٨٥

الباب الثالث: القضايا السياسية والإجتماعية في رواية الظل الأسود ٩٣

المبحث الأول: الرواية العربية الحديثة والسياسية ٩٤

المبحث الثاني: نجيب الكيلاني والرواية السياسية ٩٨

المبحث الثالث: رواية الظل الأسود دراسة تحليلية ونقدية ١٠٥

خاتمة ١٣٤

المصادر والمراجع ١٣٨

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، ورسول رب العالمين، وعلى آله وصحبه، أجمعين أما بعد:

ظاهرة الأدب الإسلامي قديمة بالفعل، من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، و إن لم ينتشر مصطلحا خاصا وجديدةٌ على أنه وجد من يرعاه، ويتبنى مصطلح "الأدب الإسلامي" وأُنشئت لذلك رابطات ومكاتب وعُقدتْ فيه المؤتمرات والندوات، واعتنت بها الجامعات والكليات في العالم لكي ينهض من جد يد. إن تبلور الأدب الإسلامي يحدث بالتحديد في النصف الثاني من القرن العشرين، إتجاها خاصا كإتجاهات المذاهب الأدبية. وهو بدأ بالنداءات الملحة التنظيرية لينتهي إلى التطبيقات الناجحة. وكان يهدف إلى وجود كيان مستقل للامة الإسلامية، وتعزيزها، وتعبير رؤاها ومطامحها، بواسطة الأدب الذي له تراث عتيق، ينبثق عن نظرة الإسلام إلى الكون والحياة وعلاقة الإنسان بهما. وخلقتْ اسلاميةُ الأدب بعضَ الترددات، والمقابلات الحادة، لمِا لم يستطع لكثير من الأدباء التكيف بها، لأن هذا الأدب كان يختلف تماما، عن كل ما عداه من نظرات وأفكار تملأ الساحة العربية، فتفكروا أنه قيد على الفن وحرية التعبير، ومربوط بحبل الدين، والدين كله قيود. ولكنه قد سار في مسيرته ثابت القدم، إلى أنْ وَسِع ميدانُه في جميع الفنون الأدبية من الشعر والقصة والرواية والمسرح والأعمال الإبداعية. و إن البيئة العربية لم تزل حافلة بالدراسات، والأبحاث، والمناقشات، عن هذا النوع من الأدب، التي تُنظِر له، وتُعين ميزاتِه وخصائصه.

وبصرف النظر عن الأدب الإسلامي القديم، الذي أتقن في دراساته الدارسون، وتنوعوا في مجالها إنصرف إهتمامي إلى الجديد، للحرص على معرفة منابعه ومشاربه. فإن الساحة الأدبية الإسلامية مليئة بهذه الدراسات التنظيرية التي لا نستغني عنها، ولكنها لم تكن كافية، لتعدين ما في الأدب الإسلامي من جمال وروعة، لأن الجمال والروعة الذين يقوم

المنظرون بالدعوة إ ليهما لا يُعتبران، إلا إذا اتصلا بعمل إبداعي. أما في الساحة الأدبية العامة فإنه لا يوجد للعاملين للأدب الإسلامي حضور قوي بين الجماهير، وذلك بانحصارهم في تعريف الأدب الإسلامي وتنظيره. وقد أسهم في هذه التجربة الأدبية كثير من الأدباء الموهوبين. وغرس لها البذرة الأولى سيد قطب في كتبه الأدبية مثل: خصائص التصور الإسلامي، والنقد الأدبي أ صوله ومناهجه وأخوه محمد قطب في كتابه منهج الفن الإسلامي وأبو الحسن علي الندوي ولكنهم كانوا في مجال الإبداع الفني ذي حظ قليل. ولم يكتب سيد قطب إلا رواية واحدة باسم "اشواك". وذلك لاختيارهم التجربة العلمية مسار أدبهم ما يجعل الإبداع الفني بعيدا عن متناول يد القراء.

وكان الأديب المصري نجيب الكيلاني في سماء الأدب الإسلامي كوكبا مضيئا، لغزارة إنتاجه الأدبي وتبدل الامر عنده بكثير حيث كان واحدا من رواد هذا الأدب، ورائده. وكان يتمتع بقراءة واسعة في العالم العربي. وهو شاعر، وناقد، ومنظر، ومسرحي، وروائي وأغدق تلك النظريات التي قدمها سابقوه، وأوضحها للقراء ما فيها من وضوحٍ، وجلاءِ مقاصدها الأدبية وأهدافها، إلى جانب كتاباته الوفيرة في الفنون المختلفة. ولهذا الأمر أنه يمتاز عن روائيين إسلاميين عبد الحميد جودة السحار، الذي لم يكن يتقن في الإسلامية وعلي أحمد باكثير الذي كان يشتهر في جانب معالجته القصة التاريخية وغيرهم. ويستطيع الباحث في أعمال الكيلاني الأدبية الإلمام بما انتهى إليه الأدب الإسلامي من التطور لأنه كان مطلعا على كل ما كان يحدث من التغيير في الأوساط الأدبية أكثر من غيره. وأثناء جولتي في اختيار الموضوع، كنت أضع نصب عيني ما يفيدني في دراسةٍ عن الأدب الإسلامي، ومشروباته، وخصائصه التي تميزه من الأدب الإسلامي الذي كنا نقرأه في أدبيات الأدب العربي، منتسبا إلى عهد أو زمن خاص والذي يشمل كل ما جاء في العهد الإسلامي أو عهد الملوك الذي تابعه. وإن القراءة في هذا المجال جعلتني أفاجئ بكثير من الدراسات عن الأدب الإسلامي، وعرفت كثيرا من الشخصيات العاملين للادب الإسلامي، والمقبلين عليها، وقد انبهرت منهم بشخصية الكيلاني الإسلامية ونداءاته

الأدبية، واختياره هذا الإتجاه على الرغم من كونه قادرا للإنخراط في البيئة الأدبية المصرية الحديثة. وهو ممن يحتاج إلى دراسة عميقة لا من حيث الشخصية التي تملأ الصفحات بها بل من حيث الدراسة التحليلية والنقدية للإرتقاء بالأدب الإسلامي وتحديد مساره. فما وُجِدتْ عنده من الخطوة الزائدة من زملائه ومعاصريه الإسلاميين، صرف بذهني إلى أعماله الأدبية في الرواية التي يتقن فيها إلا أن الدراسات عن الأدب الإسلامي وإسهام الكيلاني فيه كثيرة. وفيها ما اطلعت عليه وما لم أستطع الإطلاع عليه. وقد بدأت الجامعات في الدول العربية مثل المغرب والأ ردن والسعودية ومصر والجزائر وغيرها تعتني به عناية كبيرة من حيث إقبال طلابها للدراسة عنه بشكل كبير حتى أصبحت عادة كيثر ممن يهتمون بالأدب الإسلامي دراسةً أن يُربط الكيلاني به، ويتصدى للبحث والدراسة عنه وشخصيته إلى جانب كثير من المقالات في المجلات مثل مجلة الأدب الإسلامي الصادرة عن الرابطة الأدب الإسلامي العالمية ومجلة المشكاة من المغرب. وقد علمت أن الدراسات عنه بالشكل المباشر تتجاوز العشرين ولم أحصل عليها ولكن اطلعت إلى عناوينها وملخصاتها عبر المواقع، ففهمت خطورتها وأهمية أدبياته، وانكباب الطلبة المعاصرين عليه، لأن أكثر الدراسات وقعت بعد أ لف وتسعمائة وألف ميلادية. وهي جميعها دراسة نقدية أو وصفية عن جميع أدبياته، أو رواياته، أو قصصه أو شعره أو مسرحياته أو الإتجاه الإسلامي أو الواقعية الإسلامية عنده أو دراسة نقدية عن أدبياته على وجه التعميم بدون تشخيص رواية أو قصة، أما ما تم الدراسة في رواية معينة أو روايتين فهو القيام بإبداعه الفني من حيث الحبكة والتنسيق واللغة والمقومات الفنية التي لا تعدو صفحات أو مقالا في مجلة.

وقد انتبهت إلى احتياج معالجة رواية الكيلاني من حيث قضاياها على وجه التخصيص، لأن بعض الروايات مثل الظل الأسود، التي درست فيها، على الرغم من كونها رواية، هي تبدو وثيقة تاريخية كبيرة تُلفِت أنظارنا إلى حقائق ما وراء التاريخ الموجود. وإن كثرة

الدراسات عن الكيلاني وأدبياته لم تسد هذه الفجوة التي يجب على الحريصين على الأدب الإسلامي تسديدها.

ومن أهم الدراسات التي عرفت بها:

دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة، عرض لعدد من قصص نجيب الكيلاني لمحمد حسن بريغش، مؤسسة الرسالة ١٩٩٤، والواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني– دراسة نقدية لحلمي محمد القاعود، دار البشير، الأردن، ١٩٩٦ شعر نجيب الكيلاني بين مقتضيات الرسالة وآفاق التطور لجابر قميحة، رابطة الجامعات الإسلامية ١٩٩٩، والإتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية، عبد الله صالح العريني، المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤٠٩هـ

وقد اطلعت على بعض الرسائل الجامعية عن نجيب الكيلاني وقرأتها، ومنها: شخصيات روايات نجيب الكيلاني دراسة وصفية تحليلية رسالة جامعية قدمت لنيل درجة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة بشاور، هي تتناول شخصيات الروايات الكيلانية المهمة بوجه التفصيل ما تشمل شخصيات ملكة العنب وظل الأسود بدون تركيز على الأحداث الروائية. وصورة المرأة في قصص نجيب الكيلاني دراسة نقدية وتحليلية أعدتها الطالبة حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي عام ٢٠٠٠ ، السعودية التى تركز على الشخصيات النسائية وكيفية معالجة الكيلاني لها في رواياته وتنقد بعض الأنماط النسائية المقدمة كأنها شخصية إسلامية. والدراسات التي اطلعت عليها كانت عن الأدب الإسلامي ومساهمات نجيب الكيلاني فيه. وهذا التعميم في الدراسة أصبح شائعا بين الدارسين المهتمين في مجال الأدب الإسلامي.

ومن أدبه الواسع، الشامل لجميع فنون الأدب المعاصرة – الشعر والقصة والرواية والمسرح– قد كنت أقتصر على الرواية، لأنها أقرب الفنون إلي ذوقا وقراءة من غيرها، وسهلة الحصول عليها، نسبيا، لأن أدبيات الكيلاني مع انكباب عاشقي الأدب العربي واللغة العربية والعكوف عليها، لا تتوفر في الهند كثيرا وعلى وجه سريع، نقيضا للأدباء

الآخرين المصريين. ورأيته مناضلا ومشادا مع الحكومات ومدققا للوضع الإجتماعي والسياسي، رغما من معاناته الجسمية، والنفسية، والقيودات المكبلة عليه، ما جعلني لا أشك في إخلاصه، وتفانيه، لأجل الأمة الإسلامية في العالم كله.

أما عدد الروايات التي كتبها الكيلاني فكثير، والإحاطة بجميعها سوف تضيع تركيز الباحث، أما الواحدة منها فلا يحصل منها المراد، إلا أنها تنحصر دراسة في رواية بدون إحتواء ما كان يقوم لأجله، فقد رأيت في هاتين الروايتين– الظل الأسود وملكة العنب– التين يتم البحث عنهما، مجمعا عجيبا ومحطة آمنة لأرصد عن أدبيته وعقليته من حيث المضمون، لأن رواياته كلها واسعة بكونها إما تاريخية أو سياسية أو إجتماعية محلية أو عالمية. وقد انتبهت في اختياري للروايتين ملكة العنب والظل الأسود إلى أن لا تكون الدراسة عما هو مشابهة بالأخرى، ومثيلة بموضوعها، لأنه لا يفيد بفائدة ولكن كان قصدي أن أدرس رواية نجيب الكيلاني من الناحيتين الناحية المحلية والإستشرافية. فكانت الواحدة فيها غير كافية. وإن الباحث لم يركز قط ولم تنتبه في هذه الدراسة عن الرواية من حيث اللغة والأسلوب والمقومات الفنية، التى يوجد في الأدب الإسلامي المعاصر قواعدها، وقوانين خاصة بها، مخافة الإطالة، وبحيث إنها تستحق دراسة مستقلة.

تختلف هذه الدراسة من الدراسات المذكورة آنفا، على أنها منحصرة على روايتين من الروايات الكثيرة له، والتان لم يوجد عليهما دراسة حتى الآن من حيث تحقيق أحداثه الإجتماعية والسياسية والتاريخية التي كان عليها إهتمام الكيلاني كثيرا، وتفي هذه الدراسة ما لا تفي الدراسات العامة عن روايته وقصصه التي تبالغ الإهتمام على ملامحها العامة بدون قصد الوقوف على وحدة معينة، على أنه من المستطاع أن يسبر أغوار ما فيها من الأحداث من حيث الصدق والواقع، والتزاميته بصدق الوقائع التاريخية إلى حد كبير.

إنتهجت في هذه الدراسة منهج التحليل والتنقيد، لتكون الدراسة متقنة ومقنعة، وجمعت المصادر والمراجع من الجامعات الهندية، وتناقشت الموضوع للمهتمين بهذا الموضوع، والمجال والأساتذة الأجلاء في الجامعات، والطلبة البارعين إلى جانب المواقع العنكبوتية،

والندوات واللقاءات التي تم دمجها في الوسائل الإلكترونية مثل فيديوهات يوتوب، والمجلات الإسلامية الرقمية وغيرها التي استطاع لي بها المعرفة عن التيار الإسلامي الجديد بأهدافها ومعالمها كما استطاع لى مقارنة هذه المعلومات بنجيب الكيلاني ورواياته، وتحديد مكانتها في الأدب الإسلامي المعاصر من خلال روايتيه الظل الأسود وملكة العنب. وقد قسمت الدراسة إلى ثلاثة أبواب وكل باب تنقسم إلى مباحث مع مقدمة وخاتمة مستقلتين. وهي "نجيب الكيلاني أديبا اسلاميا" و"القضايا الإجتماعية والسياسية في رواية ملكة العنب" و"القضايا الإجتماعية والسياسية في رواية الظل الأسود" على التوالي.

الباب الأول زكزت فيه على الأدب الإسلامي ومواقف الكيلاني منه أكثر من تفاصيل الكيلاني الشخصية، بدون الإعتراض عنها كليا. فوقفت على الأدب الإسلامي تعريفا وتحديدا لزمانه القديم والجديد، والتغيرات التى حدثت له على مر الأيام، والمؤثرات الفعالة فيه ليأتي إلى حيز الوجود. ثم وقفت على حياته الشخصية قليلا لترسم مكانته وتذوقاته الأدبية واختياراته السياسية والإجتماعية. ثم تحدثت عن إسلاميته وأسباب تأثيراتها فيه ثم عن أدبه وآرائه في الأدب الإسلامي وعن مساهماته الأدبية مجملا وهذا الباب مقسم إلى خمسة مباحث.

والباب الثاني هو بحث مستطيل عن القضايا الإجتماعية والسياسية في رواية ملكة العنب، وليكون الأمر أكثر وضوحا تمهدت بتعريف المجتمع في الأدب العربي والروايات العربية عامة ثم دخلت إلى كيفية المعالجة التي قام بها نجيب الكيلاني في رواياته على ما فهمت أن المجتمع عند الكيلاني والأدباء الآخرين يختلف اختلافا دقيقا وشديدا، ومواقفه في المقومات الإجتماعية غير ما يقوم عليها كثير من الأدباء، وقمت بتحليل الرواية مضمونا للإنتباه إلى الأحداث التي تدور عليها الرواية. وذلك توطئةً لتعميق ما جاء في رواية ملكة العنب من القضايا الإجتماعية، التي تبدو بدونها مجافية، للنواميس المعتادة والمؤلفة في تحليل المجتمع والأوضاع الإجتماعية، ووقفت على قضايا مهمة في رواية ملكة العنب وما تعطي من الرسالة. ثم تطرقت إلى القضايا السياسية ولقد امتحنت القضايا السياسية

في مصر ذلك العصر، والأسباب المهمة لترتب هذه العواقب في البيئة السياسية بمصر معتمدا على الوثائق المرجعية من التاريخية والسياسية. ثم قمت بتنقيد طرق أداء بعض الشخصيات في الرواية لكي نكون جادين على القيم الإسلامية الصحييحة. وهذا الباب ينقسم إلى خمسة مباحث.

والباب الثالث، قمت فيه بدراسة رواية الظل الأسود، التي تعد رواية سياسية، فاخترت أن أبحث فيه عن الأمور السياسية بتفصيل. وقفت أولا أمام الرواية السياسية العربية وتناولت المضامين السياسية، للفهم عن تميز الكيلاني بهذا الصدد. ثم حللت الرواية حدثا، ومكانة ثم ألقيت الضوء على الوثائق التاريخية القيمة التي هي جوهر الدراسة في هذه الرواية، فقارنت الشخصيات الروائية بالشخصيات التاريخية التي كانت لهم في سياسية اثيوبيا الراهنة اليد الطولى، ووصلت إلى معنى الإنتصار الذي أراد به الكيلاني في روايته. إن قيامي على هاتين الروايتين كان بمثابة قيامي على معظم رواياته، من حيث مواقفه لا من حيث أحداثه القصصية، لأنهما تمتزجان بجميع ما كان يحاول أن يكتب عنه، أو يقول به، أو يناضل لأجله، أو يدافع عنه.

وإن صح التعبير، لا يكون عمل من الأعمال متسمة بالكمال، لأن الكمال ليس من طبيعة الناقص، ولا يستحقه إلا الله. ومن هذا الباب، إن هذه الدراسة متواضعة، ناقصة، إلا أنها مشاركة حريصة في محاولات توطين الأدب الإسلامي، فهي مثناة وإن قلت فيها المواهب.

الشكر والتقدير

ولم تكن هذه الدراسة تخرج من فراغ، بل هي عبارة عن الأخذ والعطاء، من قبل أشخاص ذوي قلوب شفافة، وأيادي سخية، وألسنة طليقة. ولم تكن لهذه الدراسة وجود لولا توفيق الله قبل كل شيء ولولا أن كانوا حريصين علي. وعندما ألتفت أرى حولى دائرة مضيئة، تستوجبني أن أقدم إليهم خالص الشكر والعرفان. وأدعو الله المولى عزوجل أن يجزيهم عني أحسن الجزاء، ويكرم مثواهم.

والداي، الحنونان إلي، والمتحملان لأجلى أشد المصاعب، والذان لم يكونا يعتنيان سوى الإرتقاء والإزدهار لأولادهما، كانا لى جسرا متينا، وحصنا منيعا، وكنزا من كنوز الدنيا قضيت طول حياتي ملاقيا منهما شفقتهما ورعايتهما، ما جعلني أطيق أعرج درجات التقدم التعليمي متناسيا كل ما أُعاني من كروب الحياة وعويصاتها. اللهم طوِّل أعمارهما بالعافية والسلامة وارحمهما كما رباني صغيرا. وأنا شكور لكل من أفراد أهل بيتي، لما قبلت منهم زادا يدفعني إلى الأمام في حياتي من المحبة والألفة المحبوبة.

وأساتذتي، الذين ظلوا منارة علم، وتربية. إستقيت منهم معلومات قيمة، والتقطت منهم دررا ثمينة، في المدرسة في مراحل تعليمي وأساتذتي الأجلاء بجامعة دار الهدى الإسلامية، التى كنت في حرمها، ودهاليزها قضيت اثنتي عشرة سنة متوالية، ما انفتح لى عالم جديد، من العلم والتطور. أشكرهم شكرا جزيلا ويجزيهم الله أحسن الجزاء. ولا أفوتني أن أقدم شكري الخاص لهذه الجامعة– جامعة جوهرلال نهرو، وأساتذتهم بما نلت منهم من الإهتمام والتقدير.

وقد لاقيت في هذه الدراسة مشاكل كثيرة، لأن شخصية نجيب الكيلاني مجهولة لدى كثير من المضطلعين في الأوساط الأدبية العربية في الهند فضلا عن رواياته وإنتماءاته. وقد احتججت إلى أخذ جهد زائد في جمع المواد، والمصادر، والتقيت أشخاصا كثيرا، لأن إنتماء نجيب الكيلاني الإسلامي وغيابه عن الدائرة الرسمية للأدب العربي وقلة الدراسة

عن الأدب الإسلامي الحديث، وعدم العناية به يجعل الباحث في هذا المجال من الدول مثل الهند على وشك الإستياء. وإني جُلْتُ في الجامعات العربية والإسلامية في الهند، للحصول على نسختين لروايتي الظل الأسود، وملكة العنب مثل جامعة كيرلا، وجامعة كاليكوت، وجامعة شانتبرم الإسلامية، ومركز التربية الإسلامية بولانجيري، واتصلت بأساتذة الندوة بلكنهو، التي هي من أكبر المدارس الهندية تعتني بالأدب الإسلامي وخصوصا بنجيب الكيلاني وأدبياته، ولم أوفق عليهما إلا أنها تحتفظ بيسير من الكتب لنجيب الكيلاني. وبواسطة من زملائي الحميم عرفت بوجود الكتب المنشودة في مكتبة جامعة عليكراه الإسلامية، على الرغم من مكتبتها الضخمة، وكتبها ودراسات وفيرة فيها، وشهرتها الجامعية كان القائمون عليها مُضِنُون علي بإعطاء هاتين الروايتين لأخذ نسختهما، ولم يعد إلحاحى وإتصالي المتواصل بجدوي. ولكن الله وهبني أصدقاء، مخلصين الذين حاولوا أياما كثيرة، للحصول على هاتين الروايتين من مكتبة عليجراه وقدر الله أن تقعا في يدَي وحصلت عليهما بسبب الجهود المضنية التي قام بها زملائي وأحبائي الأعزاء، إلى أن صوروها لي وأرسلونيها بعد أن قضيت يوما وليلة في رحاب الجامعة ورجعت صفر اليد. أتذكر منهم الطالبين أبي بكر الهدوي و جمال ونجيب، بكل شكر وامتنان على مجهوداتهم لأجل أخيهم المفتقر، كما أشكر سراج الندوي والدكتور جابر الهدوي طالب جامعة جوهرلال نهرو في قسم اللغة العربية على ما وجدت منه المساعدة الجبارة في ترتيب هذه الدراسة ودعمه الكامل. ولا أنسى أن اشكر زملائي الهدويين وغيرهم شكرا جزيلا.

ومن منة الله العظيمة، أَنْ قيَّض الله لي صهرا عزيزا، محمد شافعي الوافي، الخريج من مركز التربية الإسلامية ، وله دور بارز في مراحلى التعليمية منذ بداية مرحلتي الجامعية. ولم يزل حريصا في أمرى، وناصحا أمينا في تصرفاتي، بحيث أن قام طوال بحثي بما يزودني من الهمة، وناقشت معه بمهماته، وقام بتصحيحات قيمة لهذه الرسالة حتى قومها

بدون أن يعرف الملل سبيلا إليه. أشكره شكرا من سويداء قلبي والذي تعجز الكلمات بتعبيره. اللهم اجزه عني أعظم الجزاء.

وأخصص أن أوجه شكري الجزيل وتقديري العالي إلى مشرفي المحترم، الدكتور مجيب الرحمن، الذي عجبت بإتقانه اللغة العربية وعلمه في الأدب العربي لإرشاداته القيمة، خلال دراستي وإعداد هذه الدراسة من أولها إلى آخرها.

وأخيرا ليس آخرا، أقدم شكري الخالص لكل من كان لهم نصيب في هذه الدراسة مباشرا وغير مباشر، وإعداد الرسالة من أعماق قلبي داعيا إلى الله أن يجزيهم عني جميعا أحسن الجزاء.

محمد عبد الكريم الهدوي كيه. تي.

الباب الأول

نجيب الكيلاني أديبا إسلاميا

المبحث الأول : الأدب الإسلامي

المبحث الثاني: حياة نجيب الكيلاني وشخصيته

المبحث الثالث: عصر نجيب الكيلاني الفكري وتأثير الإسلامية فيه

المبحث الرابع : الأدب الإسلامي عند نجيب الكيلاني أبعاده وآفاقه

المبحث الخامس: مساهمات نجيب الكيلاني في الأدب الإسلامي

المبحث الأول[1]
الأدب الإسلامي

إن الأدب عامة ينتمي إلى مدرسة أو فكرة معينة أو رابطة خاصة، وله مناهجه وأصوله، وتُبْنى معاييرُه ومقاييسُه حسبما يرسم له مفكروه أو فلاسفته، فهذا عصر"المذاهب" في الأدب، وتم تعريف المذهب على "أنه إتجاه فكري، أو تعبيري، له خصوصيات في المضمون والأسلوب، ينضوي تحته أعلام من الفلاسفة أو الأدباء يطبقون أصوله، ويرفدونه بخصوصياتهم تأثرا وتأثيرا"[2]. وقد بدأت ملامح المذاهب الأدبية تتضح في الأدب ابتداء من عصر النهضة في الغرب، الذي أُطْلِقتْ عليه "النهضة الأوربية العظمي"(Renaissance). ولا يعني ظهور المذاهب من جديد أن الفكرة التي يحملها مذهب أو مدرسة كانت جديدة وآتية من العدم بل كانت شائعة كل الشيوع في غابر الزمان، فكل ما حدث هو إحياء التراث الإغريقي أواليوناني وتجديده و تحديد اطار خاص بهذه الفكرة.

وبسبب تجسيد هذه الظاهرة في الأوساط الأدبية استطاع للأدب أن يتصف بالحركة والإنتعاش ولدفع قدرات الكتابة إلى الأمام، تعزيزا وتحفيزا، ولإستجماع الجهود المتشتتة لتحقيق هدف معين أو نجاحِ إتجاه خاص. وكل مذهب وأصحابه أعدوا ما استطاعوا من قوتهم، لإبراز ما في مذاهبهم من القداسة والحصافة، إلا أنه تبدل ولا يفتأ يتبدل بحسب المتغيرات التي لم تزل ولا تزال تعتري على الإنسان والحياة والكون.

---

[1] المبحث الأول " الأدب الإسلامي" دراسة في كتاب " في الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق– للدكتور عبد الدايم، دار الشروق، ٢٠٠٢. وكتاب " في الأدب الإسلامي المعاصر– دراسة وتطبيق" لمحمد حسن بريغش، مكتبة الحرمين، الرياض– البطحاء

[2] مذاهب الأدب معالم وانعكاسات ص١٥ للدكتور ياسين الايوبي، دار العلم للملايين،١٩٨٤.

إن الأدب الإسلامي مبادرة معاكسة ومتمردة على هيمنة التيارات الأدبية، التي تنشأ وتترعرع في بيئة مادية خاصة وتقبل مقوماتها من منبع غير قابل وغير صالح للأمة الإسلامية التي تراثها تراث عربي وبيئتها بيئة دينية إسلامية. أما الصحوة الإسلامية التي عقبت الإستعمارات الغربية والغزو الفكري الغربي المباشر الذي بدت ملامحه السلبية في الأمة وكتابها ومثقفيها، كانت من أهم الأسباب لظهور هذا النوع من الأدب الإسلامي كإتجاه خاص حتى رأى أصحابُه احتياجَ المجتمعِ الإسلامي في الحال الراهن إلى كتابة إسلامية لها أصولها، ومنهجها ونقدها والإهتمام البالغ بها.

أصحاب الأدب الإسلامي كانوا دائما بالمرصاد للمذاهب الفكرية الوافدة لأن ما تحملها من الأفكار والمعاني تزييف وإغراء لا يمت بصلة إلى الأدب العربي والإسلامي، أما "المذاهب الفكرية فهي صور أُخرى لم تكن صادقة في التعبير عن هذه الأمة، وكانت تعبيرا عن المجتمعات الأخرى التي سيطرت على أوضاع المجتمعات الإسلامية وتحكمت بمصير شعوبها، وحرصت هذه الفئات على إبعاد التيار الإسلامي عن طريق الناس ومنعه من نشر فكره وأدبه وتطبيق مناهجه. أصحاب النظريات المادية يحرصون مع هذا على هدفهم البعيد في محاربة الدين وإفساد الأخلاق والإنسلاخ من أي معنى من معاني الإيمان وإحلال مذهبهم المادي الذي يُوثِر المنفعة، ويرفض كل ما هو غيبي، لذلك نراهم يعملون على تشويه صورة الدين الرائعة التي رسخت في أعماق المسلمين، ويثيرون الشبهات حول تاريخ المسلمين وعقيدتهم، ويحاولون الإبعاد عن لغة المسلمين وثقافتهم.

وعلى الرغم من أن الأدب الإسلامي في سبيله إلى التطور والنمو، أنه اجتاز شوطا كبيرا في هذا المجال، في اتخاذ منهجه، وأصوله، وتقويم نقد إسلامي هادف. فشكل تصورا خاصا إسلاميا، يخالف تصورات غير إسلامية من الأدب وغيره، إبتداء من الكلمة التي ينطق بها الإنسان، ويرى أنه توجد في عالم الإنسان كلمة طيبة وخبيثة، على أساس قول الله تعالى "ألم تر كيف ضرب الله كلمة طيبة كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي

أُكلها كل حين بإذن الله، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون"[1]. فما يحدث في العالم هو الصراع المستمر بينهما، لأن الطيب لا يجني إلا الطيب والخبيث لا يجني إلا الخبيث، وتكون الكلمة الطيبة ضوءا جديدا ينير ظلمة المشاعر والأحاسيس المائرة في نفس الإنسان، والكلمة الخبيثة التي تسود الآن باسم حرية التعبير وصدق الصورة والتحرر من القيود تقدم صورا مشوهة وتفسد الأخلاق وتهدم كرامة الإنسان وتفضي إلى تفكك المجتمع، حتى تجرأت على تشويه وتحريف التاريخ الإسلامي وفسره خارج السياق، لأن السياق الذي ينجم عنه التاريخ الإسلامي عقدي، وليس ماديا، فالتفسير المادي للتاريخ والشخصيات الإسلامية والسياقات التي ينتج عنها المجتمع الإسلامي، سيؤدي إلى ما هو غير إسلامي، وهذه "التصورات غير الإسلامية" تتحين فرصة لتدمير الإسلام، واستئصاله من الأرض لأنها في فلسفاتها وثنية أو جاهلية.

أما دور الكلمة في الحياة فهي وسيلة مهمة تؤثر في الفكر والشعور معا وتساهم في الجوانب المختلفة للبناء الثقافي للإنسان من الفنية والعلمية والمادية والمعنوية الواقعية والخيالية. فالكلمة عند المسلم على وجه الخصوص ليس بهين، لأنه مسئول أمام الله ومحاسب على أقواله. إن مدلولات بعضِ المصطحات في القرآن والحديث من "القراءة" و"التعليم" والقلم"، التى هي مدار الأدب والتعبير، تُفَسَّر تفسيرا دقيقا من قبل الدعاة إلى الأدب الإسلامي على أن هذه الأمور تحتاج إلى منهج إلهي لأن جميع ما ذكر من الكلمات الدالة من الوسائل تبدأ من الله وتنتهي به، وذلك لقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم[2])

ومن اللازم أن تكون القراءة ما هو يغذي النفس قيما سامية وأخلاقا سوية، لتكون حياة المجتمع مستظلة تحت نواميس الله الكاملة. والقلم أداة أعمق عند الكاتب، له عواقبه ومغباته، والتعليم نتيجة من نتائجهما، فيجب أن يكون تربويا. فإن الأدب الإسلامي يُعرَّف

---

[1] ابراهيم ٢٤-٢٥

[2] سورة الاعلى ١-٥

"هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق تصور إسلامي". أما التصور الإسلامي، فهذا مما يحتاج إلى كثير من الإيضاح والتفسير، لأنه لا يزال في تشكيله وتطويره، إنه يطلب أن يستعيد قراءة التاريخ الإسلامي، لتكون دراسة التاريخِ الأدبي دراسةً عن التراث العربي القديم منذ الجاهلية الأولى حتى اليوم وإعادة التقويم لهذا التراث على أُسُسٍ صحيحة واضحة لتتبع ذلك دراسةُ الآداب الأُخرى وتصنيفها طِبقا لهذا التصور الواضح. وليس من الصحيح أن تُطبَّق مقاييسُ العصر ومناهجُ النقد الحديثة والفلسفات المعاصرة على الأدب العربي القديم رغم ما فيها من تباعد وتناقض، وتجافيها مع روح هذه الآداب.

وقد أقبل الأدب الإسلامي على أنواع الأدبية الفنية من القصة والشعر والمسرحية، واهتم بها إهتماما كبيرا أكثر مما هو على أنواع الأدب الأُخرى العلمية لأن هذا النوع الفني هو الذي من أهم الأنواع الذي تتصدى له المذاهب الفكرية الأدبية وأكثر شعوبية ولأنه هو الأكثر إعراضا عنه من قِبَل المسلمين. أما الأدب الإسلامي فليس بجديد في بنيته وهيكله، إنه قديم قدم الإسلام، بل الطائفة التي يرجع إليها الفضل في وجود الأدب الإسلامي على أنهم كانوا هم الذين وضعوا نصب عينهم الأدب فنا إسلاميا في خضم التيارات المادية التي نشبت أخطبوطتُها في الفكر الأدبي العربي، وإن يصعب على الباحث فيه أن يجد أن الفارق بين الكتاب والأدباء ضئيل، لقد كان هذا التيار واضح في بعض الأدباء المصريين وكذلك البلدان العربية. ففي مصر كان عبد الوهاب عزام، ومصطفى صدقي الرافعي، وأمير الشعراء احمد شوقي، والناقد محمود محمد شاكر، من رواد الفكر الإسلامي في الأدب. ثم تصدى كثير من المفكرين لتغذية "الفكر الإسلامي في الأدب، وتمكنوا من إستقطاب الأدب العربي الإسلامي حولهم. وكان سيد قطب، وأخوه محمد قطب، ونجيب الكيلاني، ومحمد الغزالي من أهم الكتاب في هذا الإتجاه، حتى تبلورت فكرة الأدب الإسلامي في مدة قصيرة بين أوساط الأدب العربي، وقد اشتدت النداءات والدراسات

والبحوث والمناقشات الساخنة لتصل نتيجتها إلى إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام ١٩٨٤،[١] وقد قام بالدعوة إليها أولا العلامة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، في لكهنو. وقد يحسن هنا الاشارة إلى بعض الأهداف الهامة للرابطة:

- تأصيل الأدب الإسلامي وإبراز سماته في القديم والحديث
- إرساء قواعد النقد الأدبي الإسلامي
- صياغة نظرية متكاملة للأدب الإسلامي
- إسهام الأدب الإسلامي في تنشئة الأجيال المؤمنة وصياغة الشخصية الإسلامية المعتزة بدينها القويم وتراثها العظيم
- نقد المذاهب الأدبية العالمية ومناهج النقد الحديث وإيضاح ما فيها من إيجابيات وسلبيات. مهما تعددت النقاشات في هذا الصدد، كان نجيب الكيلاني من هو الذي قام بجرأة على تفنن في الأدب، والإلتزام بمبادئ الإسلام في الأدب بوجهة نظره وبذل ما في وسعه أن يجربه تجريبا ناجحا إلى حد كبير، حيث نوهت الرابطة الأدب الإسلامي العالمية على أن الكيلاني من رواده ومنظريه والقائم في صف الأول لأدباء المسلمين.

[١] رابطة الأدب الإسلامي العالمية، المقر الرسمي للرابطة الرياض– السعودية International League of Islamic Literature *www.adabislami.org*.

المبحث الثاني

حياة نجيب الكيلاني وشخصيته

نجيب بن عبد اللطيف بن إبراهيم الكيلاني[١] ولد في قرية شرشابة بمصر في شهر (المحرم ١٣٥٠هـ)، في اليوم الأول من شهر (يونيو ١٩٣١م). إنه نشأ وترعرع في بيئة ريفية هادئة وفي أسرة دينية تحترف بالزراعة. وكانت أسرته مكونة من أب يعمل ويكتسب بالزراعة وأم تنتمي إلى أسرة الشافعي المشهورة بمصر وأربعة أخوات من أخوين وهما أمين وأحمد وأختين عايدة وسميرة. وإن جديه من جهة الأم والأب كان لهما أثر شديد في حياته الطفولة. فنجيب الكيلاني يقول عن جده لأمه عبد القادر الشافعي الذي كان حافظا للقرآن ومحبا للصالحين ومتشددا في أمور الدين "لقد كنت شديد التأثر في سلوك وأخلاقيات هذا الرجل العظيم في طفولتي أكثر من تأثري بأي إنسان آخر".[٢] حفظ الكيلاني القرآن في صغر سنه وكان منذ صباه يحضر المسجد ويشارك في المواسم الدينية المتعارفة آنذاك في مصر.[٣]

وكانت دراسته الإبتدائية في مكتب القرية والمرحلة الثانية في مدرسة كشك الثانوية ثم التحق بكلية الطب في جامعة فؤاد الأول عام ١٩٥١ وتخرج طبيبا وعمل في المستشفيات حتى انتهى إلى انتقاله إلى دبي في الإمارات المتحدة للعمل الطبي. وتزوج من كريمة بنت محمود شاهين العالم الكبير الذي يقول الكيلاني عنه "إنه كان حجة في فقة الامام

---

[١] ان عائلة الكيلاني من اكبرعائلات اهل البيت وهم من ذرية الشيخ عبدالقادرالجيلاني قدس الله سره قدم من شمال ايران من مقاطعة جيلان وهذه العائلة منتشرة بالاسم نفسه وعائلة الكيلاني منتشرة في جميع البلاد و تعود نسبتها إلى حسين بن علي رضي الله عنه اصلها عائلة واحدة والاصل لاسم العائلة جيلاني ومنهم من تركها جيلاني ومنهم من غيرها الكيلاني

[٢] نجيب الكيلاني: سيرته الذاتية،مجلة المشكاة العدد ٢٢

[٣] اهم المناسبات : حفلات مواليد الأولياء والاعياد والمولد النبوي وليلة الاسراء وعاشوراء والهجرة النبوية ثم مولد السيد احمد البدوي

الشافعي رحمه الله" وأنجبت منه أربعة أولاد هم حسام الدين وعزة وجلال الدين ومحمود. وكان طبيبا في عمله زاوله في مملكة الإمارات المتحدة. وفي عام ١٩٩٥ مارس، توفي نجيب الكيلاني جراء مرض ودُخِل المستشفى على حساب خادم الحرمين الشريفين فهد. ودفن في مصر.

أما شخصيته فيقول المستشار السعودي عبد الله العقيل "كان أول مارأيت الدكتور نجيب الكيلاني رحمه الله في إحدى قدماته من دبي إلى الرياض حيث كان يعمل طبيبا في الإمارات وكان أول ما أحببت فيه تلك الإبتسامة الوديعة التي تشعر كل من يلقاه بالمودة والألفة وتجعله يحس أنه يعرف الدكتور الكيلاني من زمن بعيد فإذا تحدث إليك راعتك دماثته ونجابته فيما يتحدث به. وفيما يدلي من آراء يسوقها في عفوية ويسر فاذا بك تتقبلها قبولا حسنا دون أن يحتاج صاحبها إلى أخذ ورد أو أمر وجدال. وهو في أثناء ذلك يمتعك بروحه السمحة ودعابته الحلوة وتفاؤله الذي تنتقل عدواه إليك مهما كنت مثقلا بالهموم والتباريج ولم تكن سجاياه مقصورة على مجالسه الخاصة وأحاديثه الفردية بل كانت تتألق في اللقاءات العامة وفي الندوات والمؤتمرات.[١]

[١] المستشار السعودي عبد الله العقيل، أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة، ص ١٢٢١ وهو مستشار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، ثم غادر الكويت في عام ١٩٨٦ ليرجع إلى السعودية حيث تولى منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي.

المبحث الثالث

عصر نجيب الكيلاني الفكري وتأثير الإسلامية فيه[1]

لقد كان عصر نجيب الكيلاني الفكري خليطا بالتيارات المتضاربة، بحيث تقدم إلى الصعيد السياسي المصري والإجتماعي عديد من الإيديولجيات، التي ادعت لنفسها حلولا شافية للإضطرابات التي يعاني منها المجتمع المصري من الاحتلال والتخلف والركود، وعلى الرغم من أنها أخذت تشرئب بوادرُها من بداية الإحتلال الأجنبي الغربي إلا أنها تشكلت أشكالا مختلفة متباينة، لكي تتوالى أصداءها ويكتمل وجودها في مصر، ولم تقتصر في واحدة أو إثنتين. ولا شك أن هذا التحرك في الأوساط الفكرية كان بسبب "الحيرة" على عاقبة مرتقَبة على "مصير المصريين"، الذي تم تعريفه على أساسيات وأصولٍ مختلفة.

إن العصر الذي عاش فيه الكيلاني كان في عنفوان القرن العشرين وكان في خضم التيارات الفكرية التي نشأت ثم تطورت في منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ثم أصبحت ناضجة، ما جعلت العالم الإسلامي والعربي يشاهدان إقتحام ونمو تيارات الفكر المختلف الشكل بحيث وُبِئَتْ بهاعقلية العرب[2].

ومن المعقول أن نفهم أن الكيلاني وبكونه مثقفا من حيث العلم والقراءة قد قصد قصدا لقبول وجهة من الوجهات الفكرية السائدة في مصر آنذاك والتي تبدو له بالوضوح أنها

---

[1] الإسلامية" هي مصطح جديد النشأة لكي يشير إلى "اسلام سياسي" قام بالدعوة إليها حسن البنا عام ١٩٢٨، لها مبادئها الخاصة الأكثر ميلا إلى السياسة وتفسير الإسلام على منهج سياسي، وإنها إمتداد للفكرة الإسلامية التي بدأت ظهورها بجهود الأفغاني ومحمد عبده ولكن تعارضها في بعض الأساسيات حتى أصبحت هيكلا مستقلا.

Professor *Ahamad Moussali,* Wahhabism, Salafism and Islamism Who is the enemy?

[2] نصر الدين عبد الحميد نصر، مصر وحركة الجامعة الإسلامية من ١٨٩٧عام إلى عام ١٩١٤، ص ٩- ١٢

على الحق وأن غيرها سبيل لا خير في قبوله. وفي أيام دراسته الجامعية كان هذا النقاش الذهني محتدما في ذروته. "و إنه كان ميالا إلى الإسلامية ورأى في غيرها رفضا واستنكارا ونيلا من الدين والعقيدة، بشكل أو بآخر ولكن الدين والعقيدة كانا في غيرها شيئ لاحياة فيه غير صالحين لمواكبة العصر الراهن بل هو سبب تخلف الأمة وشقاءها. ووجد أن الدين بعيد عن السياسة والفن إلا أنه ممارسة فردية بحتة. فرأى الكيلاني الإسلاميةَ خير بديل لأن الإنسان مجبول على إسلاميته ولايستطيع له تحقيق السلامة واطمئنان القلب الحقيقي إلا على أساسيات الفطرة المجبول عليها.[1]

ولنحيط على عصر الكيلاني و"الإسلامية" التي أثرت فيه تأثيرا بالغا ولنستخلص منها أسبابا لإنطباعه بها، علينا أن نحيط ببعض التيارات الفكرية التي نشأت وتوطدت جذورها في العقلية المصرية بصفة خاصة والعالم العربي بصفة عامة في ذلك العصر على صعيدي الإجتماعي والسياسي. أما المتغيرات السياسية والإجتماعية في مصر، فكان لها أثر كبير فيما شهده المجتمع المصري من تحولات كبرى التي تسببت لتصاعد الصراع الفكري والسياسي داخل مصر بين مختلف التيارات الفكرية والقوى السياسية حول مستقبل مصر. وإن كل التيارات الوافدة إلى مصر إنما جاءت إليها بعد أن تم ازدهارها في القرن التاسع عشر في أوربا الحديثة واستحلى بها زعماء وكتاب مصر واستنفذوها على المستوى الفكري في أوائل القرن العشرين بمصر.

الفكرة القومية:

هي عبارة عن شعور أبناء الأمة الواحدة بأن هناك رابطة تجمعهم وتميزهم عن الأمم الأخرى وهي رابطة عرقية أو لغوية أو ثقافية أو حضارية أو تاريخية أو إقتصادية أو هي فكرة الإنتماء والولاء للعنصر أو الأرض التي سادت بمصر فتبلورت إلى العروبة التي

[1] ذلك على اساس الحديث الشريف الذي رواه البخاري في صحيحه "ما من مولود الا يولد على الفطرة، فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه

يعني بها"القومية العربية"[1] وإلى قومية مصرية تنادي بالرجوع إلى"الفرعونية"[2] بحيث أصبحت القومية دينا مستقلا وحلت محل الصدارة وصارت رسالة الأدب والأدباء ويُعتبَر رابط العروبة أسمى من رابط (العقيدة والدين). [3]

الفكر الاشتراكي والشيوعي:

ظهر الفكر الإشتراكي الذي كان رد فعل لخبيثات الرأسمالية بعد الحرب العالمية الأولى وانتصار الثورة البلشفية في روسياعام ١٩١٧. ظهر الفكر الشيوعي كقوة كبيرة تزايد وزنها وكان أوائل القرن العشرين مولد الفكر الإشتراكي والمعسكر الشيوعي من حيث دعوا إلى انفصال الدين عن الشخص تماما وإيديولجيات يسارية في الإقتصادية وغيرها. أتى بأوليات الفكر المبعوثون المصريون إلى أوربا في الفترة من نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ما أدى إلى إنشاء حزب إشتراكي مصري عام ١٩١٨[4].

والليبرالية العلمانية التي كان يرأسها سلامة موسى وأتباعه ولم يحظ دين أو الإيمان بالله شيئا من النصيب عندها. وكانت تدعو إلى انفصال الدين عن الدولة. وإدراكا بخطورة ظهور التيارات المعادية للاسلام الذي هو دين الأغلبية في مصر، كانت فكرة الإسلامية تقوي بين الشعب بسياسة واضحة ووجهة تربوية خاصة وهي إمتداد من الفكرة الإسلامية التي كانت موجودة في أواخر القرن الثامن عشر والتي مهدت الطريق إلى فكرة "الجامعة الإسلامية". وهذه التيارات الوافدة من القومية والإشتراكية والليبرالية فبشكل أوبآخر كان

---

[1] وكان من اكبر روادها "ساطع الحصري السوري، وكان يدعو إلى العروبة

[2] معني الفرعونية هو الدعوة إلى القومية القبطية المصرية. وانظر ايضا كتاب مصر وحركة الجامعة الإسلامية من عام ١٨٧٢ إلى عام ١٩١٤ ص ٧٥-٨١ الفصل الخامس المعارضون للفكرة الإسلامية.

[3] ادب النثر العربي بعد الحرب العالمية الثانية الدكتور سعيد الاعظمي الندوي(النزعات الجديدة في النثر الأدبي العربي بعد الحرب العالمية الثانية- مقالات الندوة)

[4] أوراق من تاريخ الاخوان المسلمين بقلم الاستاذ مصطفي مشهور بالمرشد العام للاخوان المسلمين

تتجنب أوتستنكر كليا أوجزئيا رابط الدين والعقيدة. فهذه الخلفية المتصارعة الموصوفة بـ"التضارب الوجداني" التي سينتهي باستئصال الدين وانسلاخه من الإنسان المسلم ما أدى إلى تمهيد "الفكرة الإسلامية". فهي"دعوة تميزت بإسلاميتها الواضحة "إسلامية المصدر إسلامية المنطلق إسلامية الغاية وإسلامية الوسيلة".[1] فكانت الفكرة من هذا النوع– حسب الكيلاني – أمر لا بد منه في مثل هذا التركيب الإجتماعي دفاعا عن الإسلام الذي ثارت في قابليته الشكوك والإرتباكات. فكان قيام الإمام حسن البنا في مصر بتأسيس جماعة الإخوان المسلمين، تهدف إلى إصلاح سياسي وإجتماعي وإقتصادي من منظور إسلامي شامل في مصر وكذلك في الدول العربية. ولهذه الطائفة دور كبير في تسبب ظهور مصطلح الإسلامية على المسرح العالمي السياسي. وقال البنا في اجتماع لها: "ومن الحق أيها الإخوان أن نذكر أننا ندعو بدعوة الله وهي أسمى الدعوات وننادي بفكرة الإسلام وهي أقوم الفكر ونقدم للناس شريعة القرآن وهي أعدل الشرائع"[2]

وعن الخلفية لإيجاد الجماعة يقول محمد عمارة عضو مجلس البحوث الإسلامية "قد اقتحم التغريب عقل الأمة ولم يعد فكر نخبة يتعدى دوائر المثقفين المتغربين. وأمام تصاعد مخاطر هذه التحديات، التي نقلت المعركة إلى ميدان "الهوية الإسلامية" للأمة كانت الإستجابة الإسلامية – من تيار الإحياء والتجديد – إستجابة إيجابية. فبعد فشل الجهود التي بذلت لإحياء الخلافة الإسلامية تداعت صفوة علماء الإسلام ومفكريه في عام (١٣٤٥هـ ١٩٢٧م) إلى المؤتمر الذي عقد في القاهرة وأثمر قيام "جمعية الشبان المسلمين".

وفي العام التالي (١٣٤٦هـ ١٩٢٨م) أسس حسن البنا (١٣٢٤– ١٣٦٨هـ ١٩٠٦– ١٩٤٩م) – وهو الذي شارك في المؤتمر التأسيسي للشبان المسلمين – أسس "جماعة الإخوان المسلمين" كأول تنظيم جماهيري لتيار الإحياء والتجديد الإسلامي في العصر

---

[1] المصدر السابق

[2] الرسالة بين الامس واليوم، مجموعة خطب البنا

الحديث. فأمام تعاظم التحديات، واقتحام التغريب عقل الأمة، وتأسيس أحزاب "وطنية" و"قومية" تتبنى – بدرجات متفأوتة – المرجعية الغربية ونموذجها في التحديث، الأمر الذي نقل المخاطر إلى "الهوية الإسلامية للجماهير"، كان لابد من نقل حركة اليقظة الإسلامية وتيار الإحياء والتجديد من إطار الصفوة والنخبة والعلماء والمفكرين إلى إطار الأمة والجماهير. فأمام "عموم البلوى" كان لابد من استدعاء "الأمة" إلى ميدان الدفاع عن الإسلام، والمرجعية الإسلامية لمشروع النهضة والتغيير.[١]

وتأثر نجيب الكيلاني بالبنا وجماعة المسلمين وعرف الإسلامية: بأن "الإسلامية إن صح التعبير: فلسفة إلهية شاملة تغطي وجه الحياة بكل نواحيها وصورها سواء في العلاقات الإنسانية أو الجوانب السياسية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية وفي المسائل التشريعية أو القانونية وكذلك العلاقات الدولية والإحتكاكات العسكرية والإبتداعات الفنية الأدبية[٢] ويرى أن تقليد التراث وتقديسه ليس أبدا من أسباب التخلف والإنهيار ولكن هذا بسبب التقزز والإدبار عن المظاهر التي تتجدد وتواكب معها بشكل ايجابي بينما يرى كثير من الأدباء المصريين أن سبب التخلف هو الدين. كما قال طه حسين "فلقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الامام وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء"[٣]

هذا ما قال الكيلاني رثاء للبنا في ديوانه :

نـاديت يا حسـن البنا فما رجعـت ... ربوعنا غير أصداء من الحـزن

غالوك في ليلة ظـلماء كالـحـــة ... وغيبوا قلبك المعطاء في كفـن

ظـنوا دماءك تطفي من سخيمتهم ... وتخمد الثورة الكبرى مـع الزمـن [٤]

---

[١] دكتور محمد عمارة، المرجعية الإسلامية في نموذج التقدم.

[٢] خنساء الجاجي، شخصيات روايات نجيب الكيلاني دراسة وصفية وتحليلية ص ٧١

[٣] دكتور حلمي علي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر نقلا عن حديث الأربعاء لطه حسين.

[٤] ديوان مهاجر للكيلاني في "ذكري الامام الشهيد"

فيرى في كل ما يتعلق بالإنسان عقيدة إلهية تحفزه، فالعدل والحق والمساواة والتعادل راغمة لها وهو تقدمية معاصرة لاغير. إنطبعت شخصيته انطباعا خاصا قويا بالإسلام وتعاليمه. أما تأثره الديني فلم يكن عارضا من عوارض الحياة كما هو الأمر عند بعض الأدباء المصريين، بل كان فيه نوعا من النشوء المنتظم التدريجي في حياته في فهم الإسلام وأهميته ودوره بل أصبح إيديولجة خاصة له يلتقط منها أدبه وسياسته وحياته. يقول "ومع سيطرة الشعور الديني في تلك المرحلة إلا أن ذلك الشعور لم يتبلور في مواقف حركية إيجابية محددة، لكنه على أي حال كان ينعكس على سلوكياتنا وأقوالنا وكتاباتنا بصورة تلقائية لا تكلف فيها ولا افتعال"[١]. فإنه آمن بكل قلبه أن الإسلام ليس ما هو خصوصي مناوئ للفن والسياسة وأن له ما فيه فضاء واسع ما لايسع فيه غيره. فاندفع هذا الميل الشديد إلى التحاقه بال"اخوان المسلمين التي كانت متشددة على إسلاميته، وقد انضم إليها في الأربعينات.[٢] ويقول الكيلاني عن إنبهاره بالإخوان المسلمين "وكان الإخوان المسلمون يضعون برنامجا حافلا للمحاضرات المخلتفة التي تضم الفكر والأدب والسياسة والإقتصاد والتوعية الصحية وكانوا يربطون هذه الموضوعات كلها برباط الإسلام كما كانوا يقيمون مهرجانات للشعر والمسرح الإسلامي والألعاب الرياضية كماكانوا يضعون بعض الكتب والمجلات والنشرات تحت تصرف الرواد"[٣] وقد كان ينظر في مرحلة التأثر إلى ما يسقيه من الأفكار التي توطن فيه "إسلاميته" فيرى "علامة اقبال الشاعر الهندي" شاعرا ثائرا حيث قام بدراسته وكان يرى في فلسفاته شيئا من القبولية، مثل فلسفة الذات وقدم دراسة مكتوبة على عنوان" إقبال الشاعر الثائر"[٤] ويقول فيه

---

[١] لمحات من حياتي لنجيب الكيلاني، سيرة ذاتية

[٢] شخصيات روايات نجيب الكيلاني دراسة وصفية وتحليلية لخنساء الحاجي ص٣٠

[٣] لمحات من حياتي ج١ ص١٢٢-١٢٣

[٤] اقبال الشاعر الثائرلنجيب الكيلاني وفاز هذا البحث بجائزة وزارة التربية والتعليم في مسابقة عام ١٩٥٧(قسم التراجم والسير)

"وخلاصة فلسفته أنها إسلامية، وتحمل في ذراتها طاقة البعث لهذه الأمة الراكدة، وأضواء الإستكشاف، وأشعة المعرفة التي تزيل الظلمات والغياهب، الناسجة خيوطها حول هذه الملة البيضاء"[1]

ولم يكن ما بعد الثورة ١٩٥٢ يوليو ٢٣ بمصر بقيادة جمال عبد الناصر بمبدأ "الحرية والإشتراكية والوحدة"[2]ما يعطي أملا مرجوا بل قد أصبح جو التوتر والإنقباض آخذا في الإزدياد بالنسبة للكيلاني، لأنه كان مبنيا"على قومية إشتراكية" التي لا تسمح نمو "الإسلامية" أي تسامح.

وكان هذا التعرف والإدراك، و"النظرة الثاقبة" إلى تلك التحولات السياسية والتغيرات الإجتماعية التي تعقبت بها، جعله "إسلامي التعصب و"متحمسا دينيا". وكان هذا من نقطة تحول في حياته الأدبية حيث أصبح داعيا فعالا لها. وعانى في حياته ما عانى من القبض عليه واعتقاله في السجن مرارا بسبب إنتماءه إلى الإخوان المسلمين من قبل السلطة المصرية جمال عبدالناصر أثناء دراسته في كلية الطب بحجة "معاداة الثورة والإضرار بها" ليستمد منها معانيه القصصية والروائية بعدئذ. وقد اعتُقِل وهو في السنة الجامعية الأخيرة عام ١٩٥٥ وحكم عليه بالسجن عشر سنوات وتعرض لألوان شتى من التعذيب في السجن الحربي وسجن أسيوط وسجن القناطر وسجن مصر العمومي وسجن القاهرة وأبو زعبل. إن إمعان النظر إلى سيرته الذاتية يسنح لنا مايبرر هذا الموقف، وبصرف النظر عن السيرة الذاتية المحضة أنه سجل حياته في شمولها في كتابه "لمحات من حياتي" في ستة أجزاء. وهي في جملتها عبارة عن ذاتيته التنظيرية والتوجيهية والتطور العلمي والأدبي عنده.

---

[1] المصدر السابق ص٤٧

[2] الدكتور مجدي حماد، ثورة يوليو ٢٣ ، ١٩٥٢، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤

المبحث الرابع

الأدب الإسلامي عند نجيب الكيلاني أبعاده وآفاقه

وكما أشرنا، إنه لم يكن ينظر الأدب في وجهة خاصة له فحسب بل كان أيضا من مطبيقه تطبيقا ناجحا من حيث التنوع في الفن الأدبي. يقول الأستاذ الأديب أبو الحسن علي الندوي في مجلة الأدب الإسلامي عن الدكتور نجيب الكيلاني "إن حياة الدكتور نجيب الكيلاني حافلة بالعطاءات الأدبية وقد خلد بقلمه آثارا قيمة نالت الإعتراف من رجال الفن والأدب وغطت أعماله جميعَ أقسام الأدب فقد كان كاتبا إسلاميا له إتجاه خاص في القصة ولم يكن الكاتب كالأدباء الآخرين مصورا لواقع الحياة وإنما كان معالجا لقضايا ومحللا لقضايا الحياة وكانت كثير من قصصه مستوحاة من من واقع الحياة التي عاشها الأديب أوعايشها ثم كان الكيلاني شاعر له مكانة معروفة في مجال الشعر و ألف كذلك في النقد والدراسات الأدبية كما أسهم في كتابة السيرة الذاتية وشرح فكرة "الأدب الإسلامي" وتصوره، وبذلك كان بحق من رواد الفكر الإسلامي المعاصر و المنظرين المبدعين لفكرة الأدب الإسلامي.[1]"

وإنه لم يكن في أول مراحله الأدبية متمسكا شديد التمسك بالأدب الإسلامي على ما هو في المصطح الحديث مذهبا من مذاهب الأدبية ولم يكن ذلك في قصده، لأنه كان لم يكن كثيرَ التطلع إلى المذاهب والمدارس الأدبية الغربية ومبادئها وأُسُسِها ولكن هذا التحول في أدبه كان بسبب التوسع في ثقافته الأدبية.

أما اطلاعه على الأدب العالمي والمدارس الأدبية العالمية من القديم إلى الحديث فجعله يفكر في إبداعية الأدب وفق منهج خاص إسلامي وإحتمالية التفنن في الأدب وكان ممن أثَّره في ذلك صاحب "التصور الإسلامي" سيد قطب وصاحب منهج الفن الإسلامي محمد قطب ومحمد إقبال الهندي الشاعر الكبير وأبو الحسن علي الندوي.

---

[1] مجلة الأدب الإسلامي العدد ٩-١٠، ١٤١٦هـ

وفي حوار معه أجراه جمال السيد "حوار قبل الرحيل" رد نجيب الكيلاني لسؤال :

فكيف اتجهت إلى الأدب الإسلامي ؟ وكيف تعرفت على المذاهب الأدبية التي لا صلة لها بالأدب الإسلامي من قريب أو بعيد؟

على الرغم من أنني لم أعرف شيئا عن الأدب الإسلامي أو المذاهب الأدبية إلا أنك إذا رجعت إلى الإنتاج الأدبي الأول بالنسبة لى تجده بعيدا عن الإسفاف والإباحية والعري، بل هو أدب نابع من فكر رجل قروي بسيط، متمسك بأعراف القرية وتقاليدها التي هي أقرب ما تكون إلى الإسلام الصحيح. لهذا فقد كانت أعمالى الأولى تمثل الأدب الإسلامي، ولكن بدون قصد أو تعمد مني، وإنما مرت بتلقائية عفوية. وبدأت أتجه إلى المذاهب، فقرأت فيها الكثير، وخاصة كتاب الأدب ومذاهبه للدكتور محمد مندور، وبعدها بدأت تتضح الرؤية بالنسبة لي".[1] ولم يلبث أن تحول هذا التأثر الذهني إلى تطبيق ناجح وطور لنفسه طريقا أدبيا جادا.

يقول الكيلاني :

"أصدرت كتاب "الإسلامية والمذاهب الأدبية" من أكثر من ربع قرن، ولقد كانت هذه الدراسة المبدئية تعبيراً عما يلح في خاطري بخصوص قضية الأدب الإسلامي، لكني وجدت فيما بعد أن القضية أكبر من ذلك بكثير وأن المهمة الأولى لجيل الكتاب الإسلاميين اليوم هي المشاركة الإبداعية الإيجابية في تقديم نماذج من القصة والشعر والمسرحيات، لملء الفراغ الناجم عن غياب الحركة الأدبية الإسلامية الجادة، إيمانا مني بأن النماذج الناجحة هي الرد العلمي على حملات التشويه والتشكيك" "لقد شغلني موضوع الأدب الإسلامي في فترة مبكرة من العمر، ودفعني الحماس إلى كتابة عدد من المقالات في الصحف العربية تتصل بهذه الناحية، وكانت قراءاتي للشاعر الفيلسوف محمد إقبال بداية إهتمامي الأساسي".[2]

---

[1] حوار مع نجيب الكيلاني اجراه جمال السيد "حوار قبل الرحيل، مجلة الأدب الإسلامي العدد٩-١٠ عام ١٤١٦هـ

[2] مجلة الادب الاسلامي العدد ٩-١٠ عام ١٤١٦

ويقول المستشار عبد الله العقيل "والأديب الكيلاني يرى أنه لا خصومة بين الدين والفن والأدب، ويرى أنه خصومة مغرضة، يروج لها كل حاقد على الإسلام أو غير فاهم لشريعته السمحة لأن الإسلام لا يحارب الفن والأدب الراقي بل إنه يشجعه ويحث عليه فالمسلم روح وجسد ولا يرفض المتعة والتسرية لكل منهما ولم يخرج عن الآداب والأخلاق الإسلامية"[1] فأدب الكيلاني كان ناجما من تصور إسلامي خالص وفق منظور الإسلام الخاص تجاه الكون والحياة والإنسان. فهو تعبير عن حياة الإنسان التي تلتقي فيها مختلف العواطف والمشاعر واصطدامها من الخير والباطل حتى يصطفي منها الخير اهتداء به ويعالج الشر إجتنابا عنه و إنذارا عن عواقبه الوخيمة. أما ناحية النقص فليس مقصودا بذاته بل للمعالجة وتحويلها إلى التكامل والافضلية. الأدب الفني أو غير الفني عند الكيلاني ما هو إلا وسيلة من الوسائل للوصول إلى هدف أسمى وليس غاية في حد ذاته، لأنه يبدأ من مسؤولية الكلمة إلى مسؤلية الرسالة لأن الله يقول (ما يلفظ من قول إلا لديها رقيب عتيد[2]). فالأدب الإسلامي هو صالح للتفنن وقابل للتعايش مع "المعاصرة" ويمكن أن يوجد له ذات مستقل كما هو الأمر "في الفقة الإسلامي المتفنن والتاريخ الإسلامي" الذان يحتلان مكانا مرموقا في التاريخ البشري.

فالأدب دعوة والإبداع يجب أن يكون للتربية، أما الفن الذي لا يضع نصب عينه هذين العنصرين فلا يكون "أدبا ساميا" بل شيء لا قيمة له. لأن التربية عماد المجتمع ليكون هو أفضله. هذا رأي في الأدب يعارض من يقول أن الأدب لن ينصاعَ لأي قيد من القيود التي تختنقه.

يقول الكيلاني "والأدب الإسلامي في تصورنا عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية لا شك فيه، ولسان من ألسنة الدعوة الإسلامية التي تحرص أول ما تحرص على القدوة والمثل، وتهتم بالفعل دون أن تهدر قيمة القول، وقد يختلف بعضهم معنا في هذا التصور،

---

[1] عبد الله العقيل، أعلام الفكروالدعوة ص١٢٠٤

[2] سورة ق رقم الاية ١٧-١٨

وردنا على ذلك بسيط غاية البساطة، ألا وهو أن المعجزة الكبرى في الإسلام هي القرآن. الكلمة المنزلة من عند الله، في إطار من الصدق والجمال والإعجاز، كما أن الدعوة إلى الله بنص القرآن الكريم بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)"[1] وانه لا يتفق مع من يرى أن "الإلتزامية" عار للفن والأدب أبدا على أن كل منهج من مناهج الفن لا بد أن يكون له إلتزام بحيث هو يستمد من فكرة أو فلسفة خاصة به أو منهج خاص له إلى أن يقول "كل يلتزم بمبادئه حتى ساتير الذي قال إن حريته تبدأ من موت الإله فالتزامه عدم الإلتزام بأي من المبائ القديمة والحديثة "[2].

ويدفع عن إلتزاميته بأن كل فن من الفنون لا بد لها إلتزام معين ولا ينكر أحد تجرد العمل الفني الأدبي من "الوجهة الذاتية" فهذا ما نسميه بالإلتزام. والإلتزام هو الطاعة "الطاعة لأمر الله وسنة رسوله" وليس في الطاعة لما ينافي الحياة في جميعها وهي حب وصدق وألفة ورحمة وإغاثة. الميزة الخاصة عند الكيلاني هو الميزة الفكرية التي ترتبط بالإسلام عقيدة وفكراً وتصوراً وعاطفةً، والجانب العام تمتد جذوره إلى الإبداع العربي القديم وإلى التراث العالمي المشترك الذي ساهم فيه كل شعب بنصيب، وخاصة فيما يتعلق بالأشكال الفنية التي "أصبحت في عصرنا ملكاً للجميع، ولا تحجزها نزوات التعصب العرقية أو الدينية أو السياسية أو المذهبية أو الجغرافية، ولقد ضرب أسلافنا الإسلاميون العظام أروع المثل حينما لم يحجموا عن قراءة تراث الحضارات القديمة، وسهروا على النظر فيه وترجمته ونقده والرد عليه سواء أكان إغريقياً أم هندياً أم فارسياً فنحن قديماً وحديثاً جزء من هذا العالم الكبير من حولنا، أعطيناه الكثير، وتبادلنا معه الخبرات والثقافات، وهذه سمة رائعة من سمات الحضارة الإسلامية الخالدة، التي تغذت بلبان الإسلام، وترجمت بصدق عن فكرة وروحه". وبهذا الإلتزام الديني والفكري إنه إستعاد رواية من رواياته "ليل الخطايا"

---

[1] سورة النحل١٢٥، مدخل إلى الأدب الإسلامي لنجيب الكيلاني

[2] المصدر السابق ص ٢٢

حتى رأى أنها لا يوافق مع القيم الإسلامية" وقد قال الدكتور العريني أدرك الكيلاني ما تنطوي عليه هذه الرواية من إغراء بالإثم فرفض إعادة طبعها مرة ثانية على الرغم من الإلحاح المستمر الذي يلقاه من أكثر الناشرين.[1] و يرى أن الإلتزام ليس بدعة من الإبتداعات لأن كل مذهب يتحرك في إطار معين وبإلتزام خارجي وذاتي. ولكل أدب أرضية فلسفة معينة. فالأدب الإسلامي على الفلسفة الربانية التي وسعت رحمتها كل شيء. وفي رأيه أن الأدب الإسلامي يحرص أشد الحرص على مضمونه الفكري النابع من قيم الإسلام العريقة، ويجعل من ذلك المضمون ومن الشكل الفني نسيجاً واحداً معبراً أصدق تعبير، ويعول كثيراً على الأثر أو الإنطباع الذي يترسب لدى الملتقى، ويتفاعل معه، ويساهم في تشكيل أهوائه ومواقفه وحركته الصامدة أو المتدفقة إلى الأمام. فليس هذا عيب من عيوب الأدب بل إنه في كيفية الأداء الذي يعم الإنسانية والجمال الفني بدون طغيان على الفكر والمضمون. وقد التزمت به نزعات عالمية كالنزعة الأخلاقية. وإن ظاهرة الخصام كانت بين الكنيسة والفن، ولا يوجد بين الإسلام والفن ولكن المحاولة جادة في ترويجها في العالم الإسلامي بحجة أن الدين والفن يختلفان. يقول د. جابر قميحة في مقال له

"يكون سلوك الأديب الإسلامي تطبيقاً عملياً صادقاً لقائمة القيم الإنسانية التي يعتنقها، ويتحلى بها عن إيمان وإقتناع الإلتزام الأدبي ولا يستطيع الكيلاني أن يتصور شاعراً أو أديباً مسلماً لا ينضوي تحت لواء هذا المفهوم السوي إرتكازاً على الإسلام، وانطلاقاً منه، فيقول – في إيمان وحماسة: ألا يستحق الإسلام أن يكون قضيتي الأولى والكبرى؟!.وهذا الإلتزام لا غرابة فيه، فهو أديب مسلم، والأديب المسلم في إبداعه ينطلق من التصور الإسلامي في التعامل الفني مع الحياة والكون والإنسان، وهذا التصور هو التصور الإعتقادي الوحيد الباقي بأصله الرباني، وحقيقته الربانية: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له

[1] شخصيات روايات نجيب الكيلاني دراسة وصفية وتحليلية لخنساء الجاجي

لحافظون.[1] وربانية هذا التصور تعطيه قيمته الأساسية وقيمته الكبرى، فهو وحده مناط الثقة في أنه التصور المبرأ من النقص المبرأ من الجهل، المبرأ من الهوى، وهو كذلك مناط الضمان في أنه التصور الموافق للفطرة الإنسانية الملبي لكل جوانبها المحقق لكل حاجاتها، ومن ثَمّ فهو التصور الذي يمكن أن ينبثق منه ويقوم عليه أقوم منهج للحياة وأشمله"[2]

فالجمال ليس ما هو طياع للشهوات، إن جمال الشيء في خيره والشر كله قبيح. وإن الجمال والقبح أنهما يختلفان اختلافا تاما بالمذاهب التي أتت بمعايير الجمال الفني الحديث شكلا ومضمونا، فجمال الشيء في الأدب أن يظهر جانبه الخيري ويوطنه في نفس القارئ وأن يتعامل مع جانب الشر بحيث يكره منه القارئ ويفر منه فرارا، فظُلْمٌ أن يزين للناس ما هو شنيع ثم يقتادهم إليه ويغمسهم فيه غمسا. وهو يستوجب الجمال في العمل الفني لأن يكون الأدب جذابا للقارئ وأن لا يمل بالقراءة وأن لا يكون ذا نبرة وعظية. ويرى "أن اقتصار الفن على دور البحث عن الجمال وحده، بدون جمال المضمون تعطيل لوظيفة حيوية" أما جمال اللغة فما هو راجع إلى اللغة الفصحى القرآنية التي هي واضح كل الوضوح وهو أعظم معجزة وأسحر بيان، وهذا الأدب ينهل منه وينحو في ناحيته. فاللغة العربية هي التي تستمد منها الأدب الإسلامي والحضارة الإسلامية بالدرجة الأولى، واللغة العامية التي يدعو إليها بعض الأدباء مرفوضة عنده، أما في المضمون فجماله ما هو حق وخير والجمال ما ليس مناوئا للإسلام ويشاهد بالحديث القدسي وهو (ان الله جمال يحب الجمال) فالجمال عند "الإسلام" ليس ما يختل السلوك البشري الأمثل بل ما يقومه ويعده لحياة إجتماعية أفضل. والجمال ليس قيمة سلبية لمجرد الزينة، كما أنه ليس تشكلاً مادياً فحسب، ولكنه بالمعنى الصحيح حقيقة مركبة في

---

[1] سورة الحجر الاية ٩

[2] مقالة جابر القميحة ، شعر نجيب الكيلاني بين مقتضيات الرسالة وافاق التطور ، مجلة المجتمع العدد ١٩٩٩. ١٢/ ٢٠١٢/٠٤

مداخلها وعناصرها وتأثيراتها المادية والروحية، وموجاته الظاهرة والخفية، وفي انعكاساته على الكائن الحي، لأن أثره يخالط الروح والنفس والعقل، فتنطلق ردود أفعال متباينة.

واما وجهة نظره إلى المدارس الأدبية فهي أنها بعيدة عن الحق وتقوم على أساسيات ضعيفة لا قوام لها ويرى أن للمدارس الغربية المنحطة دور كبير في انحراف الفكر واقتياده إلى اليأس والإنتحار، بدلا من النشاط والإبتهاج . ويقول "ان الأدب الإسلامي ليس ادب يأس وانتحار بل هو أدب أمل وحياة"[١].

فهنا لنجيب الكيلاني موقف من الحرية غير موقف كتاب الفن للفن ومذهبي الوجودية والواقعية. وإن الحرية عنده شيء آخر وليس الإنحراف والتمرد على القيم والمبادئ. وعنده أن مفهوم الحرية يختلف إختلاف المذاهب وهو أمر الرضا والإقتناع. والحرية عنده تكون حقيقة عندما يتحرر الإنسان من قيود الخوف وشهوة المال والجسد، وإلا فهو عبد الشهوات والهوى التي لا تذهب بالإنسان سوى إلى الشقاوة لأنه عبد الآمال وإن الآمال لا تنتهي إلا وهو يائس بها. فهو يستنكر الخلاعة الجنسية التي روجتها المدارس والغموض التي قام بها أدباء آخرون بحيث لا يفهم ما يعني به الكاتب ثم يتخبط القارئ في "المعنى" خبط عشواء ويضل القارئ بقراءته ضلالا بعيدا وأن القرآن واضح كل الوضوح في لغته وأدائه فالقدوة هي القرآن والسنة والتراث الإسلامي الذي فسر الحياة بخيرها لا بشرها.

فالأدب عند نجيب الكيلاني ليس ما هو عند توفيق الحكيم الذي يرى أن "الفن ليس في المضمون بل في الثوب (الشكل) الذي يكسيه الفنان ولا يهتم بالفكرة التي يحتوي بها الفن كثيرا إلا أن الإبتكار في تكوينه أن يكون جذابا للقارئ مهما كان موضوعه. والفن والدين هيكلان مختلفان لهما نواميسهما على حدة، فالفن حر طليق وأن أي قيد يشوهه وينقصه"[٢].

وليس ما هو عند طه حسين الذي يتعامل مع الأدب بالمنهج العلمي البحت الذي يتشكك في التراث القديم ويمنع القبول عنده ما ليس للعقل فيه حظ وافر، ما جعله يشكك في الدين

---

[١] مدخل إلى الأدب الإسلامي لنجيب الكيلاني

[٢] توفيق الحكيم، الفن والأدب، ص١١-١٦

والتراث والقرآن[1]. وإن الأدب عند الكيلاني ما هو منهج إسلامي مع ما فيه من أمور "غيبية" واجب إيمانها ويقينية.

أما مشكلة الفن والأخلاق فكانت من أعوص المشاكل الأدبية وأشدها تعقيدا واكثر الأدباء المتغربين كانوا ممن يؤمنون أن الفنان لاحجر عليه في تصوير ماشاء من المشاعر والاحاسيس، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير، التعبير لابد ان يكون بحرية وذات سمة واقعية فالكيلاني يختلفهم في هذا الجانب.

وموقفه من الآداب غير الإسلامية فإنه يسبر أغوارها من الأساسيات التي بنيت عليها والمصير الذي سيصير به حامله يعني فمن لا يؤمن بالإله فالحياة غايته ولكن ما يراه عن عالمية الأدب الإسلامي هو أن معظم الناس في العالم يؤمنون بالإله أو بالأخلاقية الإنسانية والمشاعر الطيبة من الحب والحنان والصدق والمساواة والرحمة فالإسلام يقدم لها أفضل طريق وأشمل منهج فالأدب الإسلامي الذي ينبع من الإسلام – هو طبيعيا – لا بد أن يكون منه. والفكرة أن العالم يائس بأدبياته المشحونة التي تنبع من اللاخلاقية واللاهدف كانت غالبة في دراسته عن الأدب. وهو يطلب حياة افضل منه يعطي للحياة معنى لا يأسا مدقعا. ونظره إلى الإسلام انه قد حمى الانسان من براثن السقوط في متاهات الخوف والعزلة واليأس والكفر ولم يجعل من الموت كابوسا مزعجا ولا حجة للهروب من الحياة والجهاد الأعظم منها فلا يسمح "عبثية اللغة" لأنها رباط فريد الذي يصل الذاتي بالموضوعي لها "نبراتها ومظاهرها تنبع منها الثقافة والحضارات.

وعلى الرغم من أن نجيب الكيلاني كان أتقن في فن القصة إلا أنه مارس الشعر والقصة والمسرح، وأنه كتب كتبا تنظيريا على جميع الفنون مثل في كتبه "تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية" ورحلة مع الأدب الإسلامي و"المسرح الإسلامي"، والأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق.

---

[1] انظر كتاب تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر للدكتور حلمي علي مرزوق– دار المعارف.

أما انتخاب "البطل أو تكوين الشخصية للقصة كان كل ما يهمه لأنه كان نوعا من "الإصطفاء" من شرائح المجتمع التي تصح أن تتحلى بالفضائل وتتخلى بالرذائل. يرى أن البطل في القصة أو المسرح قدوة لا تستضل وينعم في القيم وهو سعيد بها. أما أخذ الشخصيات من التاريخ فإنه يرى حرية التصرف فيها ما دام لم ينحرف عن نفسية الشخصية التاريخية ولذلك للأديب أن يدرسها درسا وافيا من المصادر الصحيحة لكي يتحلى بنفسياته الكبيرة. ومما لا شك فيه أن نزعته السياسية والفكرة "الإسلامية" قد أدته إلى تحويل ملكته الفنية إلى نوع من "الدفاع والمقاومة" حيث كتب كثيرا من الروايات العربية المتعلقة بالسياسة والحكم و اكسبت كل من رواياتها التاريخية والإجتماعية مسحة من السياسة التي يؤمن بأنها من حتمية الإسلام.

يقول الأستاذ محمد بن يحي أبو ملحة في مقاله "إسلامية الشخصية في روايات نجيب الكيلاني" ولقد أدرك الكيلاني أن كثيرا من كتاب الرواية مارسوا عدوانا على الشخصية الإسلامية حيث شوهوا صورتها وجعلوها مثالا للانتهازية والغفلة والجشع بحجة الواقعية، ولكنها واقعية لا ترى إلا الجوانب السلبية وقد وجد الكيلاني أن رجال الدين في قصصنا العربي الحديث يظهرون في أغلب الأحيان رمزا للبلاهة والسذاجة المفرطة ومثالا للقذارة والشعوذة وأنموذجا للسلبية المشينة، وهكذا تجمدت قوالب الدين في رجال الدين في قصصنا في تلك القوالب المستعارة من أدب الغرب وأصبحت مثالا مكررا ممجوجا يوحي بالنفور والازدراء"[1]. مهما كان الأمر فإن نجيب الكيلاني كان ممن يؤمن أن "الأدب الإسلامي" الفني إنما هو في مرحلة النشأة و لم يتطور كثيرا إلا إذا تصدى لهذه المهمة أدباء إسلاميون.

[1] اسلامية الشخصية عند نجيب الكيلاني للاستاذ ابوملحة، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية ، استاذ الحديث المساعد بجامعة خالد، السعودية

المبحث الخامس

مساهمات نجيب الكيلاني في الأدب الإسلامي

يمكن تقسيم أعماله الأدبية إلى أربعة أقسام ١- الشعر ٢- النقد (التنظير والتطبيق) ٣ القصة (القصة القصيرة والرواية) ٤- المسرحية - وهو بدأ بالشعر. وكانت باكورة أعماله ديوانا بإسم "نحو العلا" يتضمن قصائد عن فلسطين والشخصيات الإسلامية والدينية والسياسية و"أغاني الغرباء" و "عصر الشهداء" و"كيف القاك" و "مهاجر"و"مدينة الكبائر" و"لؤلؤة الخليج" و"أغنيات الليل الطويل"

وقد أقامت رابطة الأدب الإسلامي العالمية مهرجانا في القاهرة لتكريم الدكتور نجيب الكيلاني "رائدَ الأدب الإسلامي" عام ١٩٩٤ بما أثرى المكتبة الإسلامية بالقصص والروايات والمسرحيات التي تجاوزت رواياته فقط، على الأربعين وكان أكثر نضجا في القصة من الفنون الأخرى لأنه كان مطلعا على القصص العالمية الشهير وكانت تثيره مثل قصص الكتاب الروسيين أمثال تولستوي ومكسم غوركي.

أما ملكته لكتابة القصة كانت مما تعجبنا حيث كتب أعمالا فنية باهظ العدد وكلها في فترات قصيرة أما روايته " الليل الطويل" (١٩٥٨) الحائزة على جائزة وزارة التربية والتعليم كتبها في السجن في ثلاثة أسابيع.[١] وهو رائد القصة الإسلامية التي تمتاز بالا[٢]سلامية الواضحة والصريحة

وفي القصة أنه كتب سبع قصص قصيرة حول قضايا المجتمع العربي والإسلامي إجتماعيا وسياسيا وبعضا من القصص التي استمدها من التاريخ الإسلامي إلى أن يصح تقسيم قصصه الروائية والقصة الصغيرة إلى تاريخية وإجتماعية وسياسية. وخمس

---

[١] د. عبد الله صالح العريني، نجيب الكيلاني في رحلته الروائية، مجلة الأدب الإسلامي٩-١٠

[٢] محمد حسن بريغش، نجيب الكيلاني رائد القصة المعاصرة ١- ٢ ،مجلة البيان، موقع مكتبة الثقافة الإسلامية

مسرحيات إسلامية إلى جانب دراسات نقدية والبحوث القيمة ما ساعد الأدب الإسلامي مساعدة كبيرة ومقالات أخرى عامة. يقول محمد حسن بريغش في كتابه "في الأدب الإسلامي المعاصر، دراسة وتطبيق" قليلة تلك الآثار الأدبية التي استطاعت أن تأخذ مكانها في عالم الأدب المعاصر، وتبرز بسماتها الأصيلة مع تميزها الإسلامي الذي يعبر عن تصور إسلامي واضح، ونهج سليم، وهي في الوقت ذاته تدخل معترك الحياة المعاصرة لتعالج قضايا الواقع ومشكلات الإنسان من خلال المنظار الإسلامي الصحيح. وتبرز لنا قصص الدكتور نجيب الكيلاني كواحدة من هذه الآثار وكواحد من رواد القصة الإسلامية، بموضوعاتها، وفنيتها، ووضوحها، وتميزها"[١].

واعتبارا لجهوده المبذولة في الأدب والثقافة كرمته عديد من الجمعيات الأدبية والوزارات بجوائز كثيرة. إنه حصل على جائزة الرواية والقصة القصيرة عام ١٩٥٨ وميدالية طه حسين الذهبية من نادي القصة ١٩٥٩ وجائزة من جهة المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٦٠ وجائزة مجمع اللغة العربية ١٩٧٢ والميدالية الذهبية من الرئيس الباكستاني ١٩٧٨. وقد حُوِّل كثير من أعماله الروائية إلى أعمال فنية حيث فاز فيلم "ليل وقضبان" بالجائزة الأولى لمهرجان طقشند السينمائي عام ١٩٦٤ وحولت رواياته إلى مسلسل إذاعي وتلفزيوني. وقد تم ترجمة بعض أعماله إلى اللغات الإنجليزية والتركية والأردية والاندونيسية والملايالمية.

[١] محمد حسن بريغش، في الأدب الإسلامي المعاصر، دراسة وتطبيق ص ١٩٧

الباب الثاني

القضايا الإجتماعية والسياسية في رواية ملكة العنب

المبحث الأول: عرض المجتمع في الرواية العربية

المبحث الثاني: المجتمع في الأدب الروائي لنجيب الكيلاني

المبحث الثالث: رواية ملكة العنب دراسة تحليلية ونقدية

المبحث الرابع: القضايا الإجتماعية في رواية ملكة العنب

المبحث الخامس: القضايا السياسية في رواية ملكة العنب

المبحث الأول

عرض المجتمع في الرواية العربية

عرف يوسف نجم الرواية "هي مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها، وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس في الأرض، ويكون نصيبها في القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير"[١] إن فن الرواية يتمتع مكانا مرتفعا من بين الفنون الأدبية، على أنها وسيلة فعالة في تصوير مشاعر الإنسان وعواطفه، وإعطاء تفاصيل الزمان والمكان والشخصيات المنفعلة بالعواطف بشكل واسع، وعلى أنها غنية قادرة لعرض بنية مجتمع خاص، وفق منظور خصوصي للكاتب خلافا للفنون الإبداعية الأخرى. فيمكن له أن يعكس من خلالها جوانب الثقافة والحضارة اللتان هما من لب المجتمع الذي تنبعث منه الرواية المعينة. وكثيرا ما يحمل الكاتب قلمه لكتابة رواية أو فن أدبي، ليظهر من خلاله حوادثها ومضمونها ملامح إجتماعية أو فلسفية في وجهة خاصة له.

فلعل ما في الرواية من الإمكانية الواسعة يكون سببا في استخدام الأدباء "فن الرواية" كاداة ذات نفوذ شعبي في إبراز آراءهم في القضايا الإجتماعية بمعنى أن القضايا الإجتماعية تحتوي ما يعتري على المجتمع من الأمور الإقتصادية والنظامية والسياسية والفردية، بسبب أن جميع ماذكر يمس واقع المجتمع في تأثر وتأثير. وقد ازدادت أهميتها في تحليل الأمور الإجتماعية من طقوس مجتمع، وأساليب حياته، وطموحاته، وآماله، وصراع وجداني يتفاعل معه أفراد المجتمع أو المجتمع نفسه بسبب القيود المكبلة بهم، ويشترك الأديب في أداء رسالته لينطلق تجاه الحرية والمساواة، وتقديم حالة أكثر إنسانية، ويقدم نظريته بلسان أو أعمال أبطالها أو شخصياتها الرائدة، تحقيقا لهذه الأمور. فهو يكون مناضلا أو مجاهدا أو فلسفيا يحلل المجتمع تحليلا وصفيا، ليكشف نقاب ما يراه قبيحا، أو

---

[١] فن القصة، يوسف نجم – دار الثقافة: بيروت ص: ٩

يبرز ما يراه خيرا، ويعلم به المجتمع بطريق فني، أو ليكتشف أوجه الطرقات في سبيل الإنطلاق إلى أمثل حياة.

إذا "الرواية أداة فنية للوعي يمكن بواسطتها رصد وضع الأمة وتجسيد أزماتها العامة من خلال شخصياتها الروائية الفردية، فأصبحت الرواية طاقة سياسية وإجتماعية هامة تعبر عن روح الأمة ومشكلاتها وطموحاتها "[1]

وبالجملة، على الرغم من أن الرواية التي أصبح ظهورها نوعا من "التقدم الفني المتطور "إلا أنها لم تخل من هدف إجتماعي، ومن هنا قد تحولت الرواية من أداة التسلية والترفيه إلى شيء ذي أهمية بالغة، في تناول ومعالجة القضايا الإجتماعية والسياسية.

فالروائي لا يلتقط الوقائع ولا ينسق الأحداث عشوائيا، إنه يرى في أداء الأحداث وتنسيقها وإنتقاء شخصياتها خطورة بالغة، لكيلا تنتهي الرواية إلى فشل ذريع بل لتتحول إلى شيء تتبع منه الحيوية مرة بعد أخرى، وتكون لديه معرفة تامة عما يترتب بالقراءة من التأثير عند القارئ، لأن القارئ هو المهم عند الكاتب. فالروائي يقدم واقع المجتمع بحسب نظره إليه إيجابا وسلبا. أما ما يقدمه من فكرة أو تحليل شخصيات معينة فإنما ينتهي إلى صبغة إيديولجية خاصة له. ففي الغرب اتخذت الرواية هذه أشكالا مختلفة من الرومانسية والاشتراكية والواقعية والرمزية وهلم جرا..

وعلى سبيل المثال لا الحصر، تناول بعض الكتاب معانات الطبقات الكادحة، من الظلم، والفقر، وبعضهم صوروا إضطهادات السلطات على المحكومين، والسخرية على النواميس الحاكمة التي تستبعد الإنسان، أو التقاليد التي يتشبث الناس بها، والتي لا تعطي المجتمع إلا ثمرة التخلف والجمود.

والرواية في الأدب العربي فكانت فن مستحدث مستورد، إلا أنها تنوعت وتفننت في إتجاهها، وطرق أدائها، حتى أصبحت تطيق القيام على قدم وساق. وقد أجاد كثير من المبدعين العرب في سبيل هذا التحديث وتعزيزه، إلا أن الإيديولجية المحيطة بالرواية

---

[1] الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية لد. احمد محمد عطية ص ١٧

كانت مجرد استنساخ أو تطبيق مباشر للذي كانت تَقتدى به. وكان معظم ما تم تناوله في الأعمال الروائية العربية هو "الوضع الإجتماعي والسياسي" للعرب، وإن صح القول هو الواقع العربي أو الإسلامي نفسه، وكانت البيئة والسياسة كلها عربية وطقوسها الإجتماعية كانت دينية وإسلامية إلى حد كبير. وإن "الخلفية العربية" الإجتماعية آنذاك (وقت ظهور الرواية وبعدها) كانت مستودعا لحقائق كثيرة تصلح أن تكون موضوعا للرواية التي ترنو إلى الحداثة الإجتماعية. وإن التخلف والركود الأدبي والإجتماعي كانا واقعين أساسيين في المجتمع العربي،[١] لإنعدام المحاولات الإصلاحية والتجديدية الكافية على المستوين الإجتماعي والسياسي. فأصبحت كتاب "الرواية" من ينادون إلى التطور الإجتماعي ولكن وفرة الحصول على التعالم الغربية، وفرص التطلع على الأنماط الإجتماعية الغربية، جعلتا الأدباء أن يقدموا نماذج منها للمجتمع العربي الإسلامي وحثوا إتباعها القذة بالقذة، على حساب "التنوير" والتجديد". ولكن أدت هذه النهضة إلى استغلال الفكر العربي الأصيل وتوجهه إلى ما لا يليق به. "فوقعوا في شباك الغزو الفكري الغربي متأثرين بالأنموذج الحضاري الغربي المتقدم الوافد مع الإستعمار الغربي لبلادنا في أوج عنفوانه وازدهاره. وبدت غربة الرواية العربية عن أصولها التراثية كاملة، يتبنيها لموضوعات غربية وأشكال غربية نابعة عن حضارة غربية وتراث غربي وثقافة غربية كما تجلت في أعمال الرواد الأوائل الطهطاوي والبستاني والشدياق وغيرهم..." [٢]

وظلت النماذج التي قدمها الروائي العربي إما تسفخ المجتمع على تقاليده، وطرق تفكيره، وتحيره أمام التبدلات التي تقع على الفرد والمجتمع و اتهام عدم الوعي والإستنارة أو إستهزاءه إستهزاء ممقوتا بدون أن تعطي للمجتمع العربي بصيصا من الأمل لأن ينهض نفسه على تراثه العتيق، أو قدمه كمن أُغْلِقت عليه أبواب النجاح والعزة، والإنفتاح، إلا إذا كان غريبا في طبيعته غريبا عن نفسه وذاتيته العربية أو الدينية، إلى جانب الروايات التي

---

[١] انظر كتاب ازمة اللغة ومشكلة التخلف في بنية العقل العربي المعاصر، الدكتور محمد يونس على

[٢] الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية الدكتور محمد يونس علي، (مقدمة الكتاب)

تتحدث عن الصراع الشرقي والغربي من وجهة نظرها، سلبا وايجابا. "وهكذا ظهرت شخصية رجل الدين في أغلب قصصنا العربية "رمزا للبلاهة والسذاجة المفرطة ومثالا للقذارة والشعوذة وأنموذجا للسلبية المشينة فالشيخ الشناوي في رواية (الأرض) فقيه يلقي تهمة الكفر جزافا، ويمالئ الخونة والمستغلين ويفهم الدين فهما ضيقا سقيما، والشيخ (الجنيدي) في رواية (اللص والكلاب) شارد عن العالم بحوله، غارق في أوراده وأذكاره، ومن حوله الصراع الإجتماعي العنيف والتغيرات الجذرية التي تهز المدينة هزا عنيفا وهو وسط هذا كله يتطوح يمنة ويسرة"[١]

أما الشخصيات التي تنبهر بالغرب، ومدنيته وثقافته، وحريته، وعلمانيته، فكانت سائرة في الروايات العربية، واستمر إعتماد الرواية العربية في مفهومها للشخصية العربية على الروايات الغربية أو الأوربية وحاولت أن تواكب مع أنماطها في تحليل المجتمع واستمداد المقومات الفنية. وذلك كما يوجد عادة شخصية طالب يذهب إلى فرنسا وغيرها من البلدان الغربية، ولا يمكن له أن يتكيف مع المجتمع الذي كان يعيش فيه، والسبب في ذلك يرجع إلى توسع عقله واستنارته. وهذه النزعة الغربية في تفسير البيئة العربية لم تزل من مواد الروايات العربية. فلَبتْ شخصيات الروايات العربية لنداء الإنصهار والذوبان في بوتقة الغرب وذاتيته ومحاولة التقريب بين المفاهيم الغربية بالمفاهيم العربية واطمأن إليهما الشخص العربي والإسلامي، بدلا من الإستفادة والإستشراف.

ولم يختلف الأمر كثيرا وما زال هذا موقف الأدب الفني من المجتمع العربي حتى الجيل القادم إلا أنه اتخذ موقفا وطنيا عندما اشتدت وطأة الإحتلال الفرنسي والبريطاني ووقعه على المجتمع المصري. ويقول الباحث جمال مباركي في بحثه "في تجليات الغرب في الرواية العربية" عن رواية زينب التي تعد كأول رواية عربية "القارئ العربي لرواية زينب لمحمد حسن هيكل (١٩٨٨-١٩٥٦) يجدها تعكس ترسبات الفكر الغربي بفعل قرائته المتنوعة للتيارات الفكرية الغربية أثناء إقامته بباريس، وقيامه برحلات سياحية ثقافية في

[١] المرأة في قصص نجيب الكيلاني دراسة نقدية وتحليلية، اعداد حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي

كبرى متنزهات سويسرا وبريطانيا وبلجيكا. إن هذه الرواية تعكس تلك الترسبات الغربية التي بقيت عالقة بذهن الكاتب من فترة تكوينه، وتلمذته، إلى جانب تعلقه بوطنه وطبيعته، ومن ثم كتب رواية زينب لترسم طموحه لبناء مجتمع شرقي جديد يعبر عن آمال الشباب المصري الصاعد من خلال تبني النموذج الليبرالى الغربي وبث أفكار فردية النشأة يزكيها المجتمع ويتبناها لتصبح ظاهرة حياتية واستبدال مزاج وتكوين قديم، بفكر جديد يتجاوب مع الفكر الغربي الليبرالى في إطار رؤية حضارية متحررة تهدف إلى تغيير الحياة العامة للمجتمع من خلال تصوره القديم للكون والحياة".[١]

فالذهاب إلى دنيا الغرب واللجوء إليها كان عادة العربي المثقف إما طالبَ علم أو هاربا من تخلف الشرق والقيود والقمع باحثا عن الحرية الفردية والجمال، فشخصية حامد في زينب أدق دليل على هذا. "فهاجس الغرب شكل متنا روائيا واسعا يمدح الغرب ويهجو الشرق ويثور على نزعة التفاخر العربية القديمة التي كشفت في العصر الحديث عن مجتمع متأخر تقنيا وإجتماعيا وإداريا ومعماريا".[٢]

أما رواية زينب فكانت بمنزلة النموذج المتبع به في تاريخ الأدب العربي على أنها تعد أول رواية اكتملت لها المقومات الفنية، ولم تكن الروايات التي صدرت بعدها ببعيدة عن هذا الإتجاه الغربي. وهذا ما نفهم حينما نلتفت إلى الروائيين السائدين على المستوى العربي العام. إن صاحب "قنديل ام هاشم" يفرق بين الثقافتين بالرحلة الأولى والثانية[٣]، وكل من

---

[١] الغرب في الرواية العربية، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث. الاعداد جمال مباركي، تحت اشراف الطيب بودربالة، ٢٠٠٩

[٢] المصدر السابق

[٣] قنديل ام هاشم ، رواية لليحي حقي الكاتب الكبير المصري ورواد الحداثة (١٩٠٢- ١٩٩٠) تحكي قصة طالب اسمه اسمعيل، يعيش في حي السيدة زينب، سافر لاتمام دراسته الطب إلى انجلترا. وهو يحتك بالحضارة الأوربية ويتعرف على فتاة انجليزية، ترشده كيف تكون الحياة. وأصبح طبيبا في قريته السيدة زينب، وعندما ازدادت زيارة المرضي اله، اراد اكتشاف سبب المرض، فوجد ان استخدام قطرات

"الحي اللاتيني" [1] لسهيل ادريس و"السفينة" لجبرا ابراهيم جبرا[2] و"موسم الهجرة إلى الشمال" لطيب صالح[3] وفي كل هذه الروايات نرى تلك المشكلة الغربية والثقافية والإحتدام بينهما سلبا وإيجابا، من تفسخ المجتمع وتقاليده أو ميل إلى مزركشات ثقافة غير العربية أو الإنتهاز من حيرة الشعب الثقافية.

فالذي حدث أن استبدلت القيم المحافظة العربية بالقيم التحررية الغربية، وتصاعدت من خلالها أصوات العلاقة الحرة بين الرجل والمرأة، والحب على نفس صوت الرومانسيين الغربيين والواقعيين، والملاحظات المتعلقة بمساوئ العادات والتقاليد الإجتماعية وانعدام العدل بين الطبقات وأصبحت نفس الملاحظات التي ارتفعت في غير هذه البيئة.

وهذه الفكرة التي حملت الروايات العربية في طيها جعلت المسلمين يفكرون بخاصة والعرب عامة، ان نمط المجتمع لا يقوم إلا على دعائم الغرب، و"العدل الاجتماعي" و"الحرية الإجتماعية" و"المرتبة العليا" كلها غربية الشكل، أما إذا حاولنا "للتجديد والتصحيح" من عند أنفسنا فمستحيل كل الإستحالة. وأصبحت أشخاص العرب شخصيات

من زيت قنديل المسجد هو السبب. وانه وجد ايضا ان خطيبته تعالج بنفس الاسلوب، فحطم قنديل المسجد... الخ.

[1] الحي اللاتيني رواية لسهيل ادريس لبناني،(١٩٢٥- ٢٠٠٨) تحكي قصة حياة شاب لبناني انهى تعليمه الثانوي في لبنان وهاجر إلى الحي اللاتيني بباريس،الذي تجتمع فيه الجامعات الفرنسية الراقية وفاجأ بعالم خاص لا صله له ببلده، وعاش فيها لحظات حرمان من والديه وانغاص في الحرية المطلقة متناس الحرمان الذي رافقه من بلده لبنان. تذوق هذا الشاب طعم الحب والهيام مع فتاة فرنسية احبها واحبته وتركها عائدا إلى لبنان وهي حامل منه.

[2] السفينة رواية لجبرا ابراهيم جبرا الفلسطيني (١٩٢٠- ١٩٩٤) تتحدث عن مجتمع مركب في السفينة بمختلف مشاربه، وهو نتاج رغبات جامحة تدور في نفوس جامحيه، كلهم لديه رغبة شديدة وكلهم هاربون بصورة أو بأخرى

[3] موسم الهجرة إلى الشمال للكاتب السوداني طيب صالح (١٩٢٩- ٢٠٠٩) إنها رواية عن طالب سوداني مصطفى سعيد ينتقل من إفريقيا إلى لندن ويقيم في العلاقات الغرامية مع النساء ويحتك بالحضارة الغربية التى لا روح لها، ثم عاد من لندن، إلى بلدته فرأى فيها مايطمئن قلبه، من العلاقات والحب الصادق أكثر من الشهوانية العنيفة

مأساوية غير حيوية، لأنهم محرومون من الحب الإباحي، طرقاته مقيدة في بعض التقالد الدينية، وأفشت الروايات العربية عما يجيش في قلب الرجل والمرأة على حساب "الغرائز الطبيعية"، فذهبوا خارج البيت، وتحدوا أهل البيت، فتقطعت أواصر الأسرة، وابتعدوا عن البيت، وأدمنوا الخمر، واختلط الرجل والمرأة في النوادي، وأصروا على ما هم عليه على حساب الحرية الفردية، وعلى حساب حرية التعبير وصدق الواقع. فإن المجتمع الذي أراد به أدباء العربية كان من النوع الليبرالى الشكل والهيكل، يستبعد الدين من الأدب والحياة العامة ويستقصره إلى حياة سرية شخصية على أن فيه ما لا يليق كليا بالحياة العامة، والحالة الإجتماعية المعاصرة.

فهنا كان نجيب الكيلاني يختلف معهم في وجهة نظرهم في استيعاب الدين في الأدب وتكوين شخصيات ذات ميزة اسلامية حسب وجهة نظره إلى الإسلام. ولا يمكن إنكار أدوار النقاد الذين قاموا تجاه هذه التيارات العارمة، وتصريف المواهب الأدبية لصالح المجتمع المنشود به من قبل الأصالة والمعاصرة. مثل الأديب أنور الجندي،[١] محمود شاكر[٢]، والأستاذ محمود الرافعي[٣] وغيرهم.

---

[١] الأديب الناقد انور الجندي المصري (١٩١٧– ٢٠٠٢) وكان منهجه منهجا اسلاميا في النقد والأدب حيث قام بوضع موازين لمحاكمة الأدباء في ميزان الإسلام والفكرة الإسلامية وقام بجهد وجد امام التيارات الغربية كتب عشرات الكتب في الأدب والنقد " اخطاء المنهج الغربي الوافد" و "اعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام".

[٢] ابو فهر محمود محمد شاكر أديب مصري (١٩٠٩– ١٩٩٧) كانت له معارك ادبية مع الاخرين حيث كان يرى الأدب المعاصر الأدبي فاسد، لانه كان يدعو إلى الرجوع إلى عقلية التراث العربي الإسلامي العتيق

[٣] مصطفى صادق عبد الرزاق بن سعيد بن احمد بن عبد القادر الرافعي أديب مصري (١٨٨٠– ١٩٣١) داعية إلى اللغة الفصحي والكلاسيكية العربية، ومن كتابه اعجاز القران.

المبحث الثاني

المجتمع في الأدب الروائي لنجيب الكيلاني

إن نجيب الكيلاني لا يحيد عن موقف الأدباء والنقاد كثيرا في تفسير الأدب وعلاقته بالمجتمع، وبخاصة أدب الفن الروائي، في بنيته، وهيكله، ولا بد أن تكون العلاقة بينهما وثيقة على أن الأدب ظاهرة إجتماعية، والأديب كائن إجتماعي. إلا أنهم اختلفوا في تحديد الهدف في القصة أو الرواية، و إن للأدب إنعكاسات إجتماعية حتى في أكثر موضوعاته خصوصية، فهو نشاط إجتماعي قبل أن يكون نشاطا لغويا بل حتى اللغة تفسر من منظور إجتماعي قبل أن تفسر من منظور آخر[١]. أما اذا كانت وظيفة الأدب "خدمة الإنسان" يحتاج الأديب أن ينظر إلى الحياة نظرا ثاقبا حتى يستطيع أن يقدم أمثل خدمة للإنسان. أما رؤيته إلى الحياة بوجهة نظره الخاصة فهي تؤثر تأثيرا بالغا في خلق أعماله الهادفة، فالأديب يستمد من الحياة لوازمه للكتابة إلا أنه يؤديها تأدية خاصة.

يقول الكيلاني "الأديب إذن يستمد من الحياة، وينهض أدبه وينمو ويتحرك بما فيه من عناصر تلك الحياة، باعتبار الأديب كائنا حيا، ويؤثر ذلك الأدب تأثيرا متفاوتا في الأفراد والجماعات".[٢]

إنه يقر تأثير البيئة والحياة المحيطة بالأديب على العمل الأدبي، ولكن وظيفته لم تكن في أن يفصلها تفصيلا واقعيا فنيا محضا أو رومانسيا يهيم فى عالم الوهم والخيال، لأنها لا تتعدى من أن تكون وسيلة تسلية إن كانت مما يرتاح اليه، أو أداة مزعجة مملة إن كانت مما تتشاءم منه.

---

[١] انظر كتاب ازمة اللغة ومشكلة التخلف في بنية العقل الأدبي المعاصر، دراسة في علم الاجتماع، للدكتور محمد حسن

[٢] مقالة د. نجيب الكيلاني بعنوان " الأدب الإسلامي وعلاقته بالمجتمع والحياة

وهو يقول "واذا كان الأدب – كما يقال– تعبير عن الحياة ووسيلته اللغة، إلا أنه لا يقدم لنا صورا فوتوغرافية، أو فعلا حرفيا لتلك الحياة، لكنه يعبر عنها أو يفسرها أو ينقدها أو ينقل إلينا فهم الأديب للحياة، فضلا عن عملية التأثير في المتلقي، اذ أنها هدف أساسي وإيجابي للأديب الجاد. وان الأديب الحق هو الذي يتخذ موقفاعقائديا أو فكريا من المجتمع ويؤثر في ذلك المجتمع".[١]

والكيلاني يهتم بالموقف الفكري والعقائدي من المجتمع كثيرا، وإنه يؤمن في أن على الأديب أن يفهم مشاكل المجتمع، وسلبياته وإحتياجاته، والأسلوب الأمثل لحركته الشاملة ثم يقدم العمل على هذا المنهج الصحيح. فيختلف موقف نجيب الكيلاني عن الآخرين فى تحليل المجتمع واستمداد مقوماته، وكما أشرنا سابقا، أن المجتمع المثالى عند الكيلاني هو"المجتمع الإسلامي" الذي لايزال في عروقه حيوية ونشاط، والمهم عنده أن يقدم نموذج المجتمع المسلم المثالى ويقدم من خلاله حياة نابضة للعالم الآخر، فيدخل إلى حياة المجتمع المسلم ويتناول أفراده وجماعته، ويرى فيه حينا موضع القوة فيمجد به ويتهلل ويرى حينا أنه في ضعف ووهن، فيتحرى عن أسبابهما بغيرة شديدة، كما يخرج منه أشخاصا أو أبطالا ذات مجد وفضل وكرامة، يتحلون بمبادئ الإسلام وتعاليمه، ويصمدون أمام المعانات لأجل الحق على أنه أشمل المناهج ولصالح المسلمين على أنهم شهداء على رؤوس الناس وقاموا بمكافحة سلاطين جائرة لخير المجتمع، وأنشدوا العدل والسلامة لقوم يحرم منهما، وشخصيات مسلمة تقوم بمهام الأعمال الخيرية على أنها تفهم أن نشر العدل والخير والعمل الصالح مسؤولية على كتفها بحسب تعالىم الإسلام، ثم يلمح أثناءه بإشارة عابرة أن الشخصية المسلمة ذات عزة وكرامة لأنها اتبعت الإسلام اتباعا حسنا، ووضعته في محله. "فينهج نهج الواقعية الإسلامية ويتنافر من الواقعية الإجتماعية التي هي الواقعية (الانتقادية الغربية) التي تهتم بقضايا المجتمع ومشكلاته، وتركز إهتماماتها بشكل خاص على جوانب الفساد والشر والجريمة، وتعتبر الشر عنصرا أصيلا في الحياة،

---

[١] المصدر السابق

لذلك تبحث عنه وتجعله محور الأدب، ومن الواقعية الطبيعية التي تزيد على الواقعية الإنتقادية في تأثرها بالنظريات العلمية ودعوتها إلى تطبيقها في مجالات الإنسانية والعمل الأدبي، والإنسان في تصور هذه الواقعية حيوان تسيره غرائزه وحاجاته العضوية، وتسيطر على مشاعره وأفكاره وأخلاقه وسلوكه، ومن الواقعية الإشتراكية، التي ترى أن الأدب مبني على النشاط الإقتصادي في نشأته وتطوره ويهتم أدبها بالطبقات الدنيا خاصة العمال والفلاحين فيصور الصراع بينهم وبين الرأسماليين والبرجوازيين وهما مصدر الشرور في الحياة وترفض هذه الواقعية العقائد السماوية.[١] فنجيب الكيلاني يحاول أن يقدم صورة الإنسان والمجتمع كما ينظر إليهما الإسلام ويطلب منهما شخصا ومجتمعا. فواقع الإسلام شيء وواقع الإجتماعية شيء آخر، وبنفس هذه الوجهة الإسلامية أنه ينظر إلى مرض المجتمع، وسلبياته، ورذائله، ثم يضع مكانها نموذجا صالحا من نفس المجتمع الإسلامي، وذلك لإستعادة الثقة المفقودة عند المجتمع.

فإنه لا يقدم المجتمع على واقعه، ولكن يأخذ شخصيات ملائمة لهدف يسير إليه، ومحتوياته مستمدة من المجتمع الموجود في إيديولجيته الخاصة، فلا يسمح أن يرتع بنفسه في هجينات العيش ومتاهات الحياة الدنيوية الآسرة، ويتشاءم في مشاكل الحياة وصعوباتها تشاءما تفقد عنده قيمة الحياة. ويرى القارئ أن نجيب الكيلاني يحلم عن تحقيق مجتمع يعيش على مبادئ الإسلام، وله في الحياة مقصود أسمى وأعلى من كل شيء دنيوي، وأن الإسلام هو الطريق الوحيد الذي يأخذ به من الحضيض إلى العالى، لأن الإسلام ما لا ينضب منبعه، لإستكماله مقومات المجتمع المثالى الثابت على أنه منهج شامل وشريعة متكاملة إلهية لا تعرف الخلل.

فحاول أن يقدم من رجال الإسلام وأفراده ومجتمعه صورا مشرقة، كما يريد بهم واقع الإسلام لا كما يريد به واقع الحاضر، فشخصية الصوفي في روايات نجيب الكيلاني تكون

---

[١] المراة في قصص نجيب الكيلاني، دراسة نقدية وتحليلية، اعداد حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي

ذات فراسة وذكاء وصمود عند التهديد والتوعيد، ولا ينقاد للفجار ولا تثبط همته أغراض تافهة شخصية حينما تناولها كثير من الروايات العربية درويشا مغفلا. وكذلك المهندس، والطبيب، والمثقف، والعامي، والفلاح، والعامل ويتمثل كل واحد منهم الإسلام في سلوكه. فأصبح هو يخاطب المجتمع المسلم فقط، فشخصياته تستمد من القرآن نصائح ومن السنة والحكماء حكما وأمثالا، لكي ينفذ بها إلى جوهر الامور، ويؤثر في المجتمع تأثيرا شديدا. ويقول محمد حسن بريغش في كتابه "الأدب الإسلامي المعاصر" في باب "القصة الإسلامية" حينما يتناول هو القصص لنجيب الكيلاني "والشخصيات التي ظهرت في القصة هي نماذج من مجتمعنا، فالمسلم المحافظ على قيمه الإسلامية، مهزوم داخليا، قلق، خائف، مهزوز الفكر أحيانا ضعيف الإيمان، لأنه لايعرف من إسلامه غير المظهر والشعائر ولا يفهم من إيمانه غير النطق بالشهادتين وينسى مدلول الإسلام والإيمان في عالم الواقع والسلوك والفكر والجهاد كما فهمها المسلمون الحقيقيون عبر قرون عديدة، فحولوا الدنيا إلى مجتمع كريم، وأناخوا غطرسة الكفر في دولتين عظيمتن حتى تحطمتا تحت أقدام المجاهدين، وصدحت كلمة الله قوية هنا وهناك. وكذلك فهناك الإنسان العادي الذي تخلى عن قيمه وراح يجري وراء ملذاته وتفسخت شخصيته وقيمه وبدأ يتبجج بالنتن الجديد تحت أسماء براقة.

وهناك الذي فتنته المادة في عصر العلم فظن أنها كل شيء فأنكر حقيقة الوجود وخالق الوجود وبدا يفلسف الحياة بطريقة آلية بلهاء، تمسخ الإنسان، وتطحنه بين أسنان الآلة الجامدة.

وهناك الصورة الداعرة التي يقوم على رأسها وينفخ بنارها اليهود في كل مكان ويحملونها شعارا ووسيلة يغرون الشعوب، ويلوحون بها للغرائز، ويستخدمونها وسيلة للسيطرة على كنوز العالم ومراكز القوة فيه. ولكن هذه الشخصيات كلها لا تطمس حقائق الوجود، وحقائق الحياة الإنسانية، وهي رغم واقعها المظلم تملك الفطرة التي يمكن استنقاذها إذا

خوطبت بلغتها الواضحة الحانية لغة الوجود كله، فتستوي هذه الفطرة وتجد ملجأها وملاذها وطمأنينتها وذاتها في ظل الخالق الرحيم وشريعته الكاملة" [1]

فيرى أن المجتمع الإسلامي، حوله يزرح تحت نيران المشاكل إما بسبب محاولات مغرضة من جانب القوى المعادية للاسلام، وإما بسبب المفاهيم الغليطة عن مقومات المجتمع الصحيح داخل المجتمع الإسلامي، ويرى أمامه قوما يخاف التكيف مع المستجدات الآتية ويستنقع في بعض التقاليد المغلوطة فيأتي بشخصيات من داخل الإسلام فيقدم له بنماذج قيمة يستطيع القوم أن يتبعه. فهو يحمل على كتفه أحزان الأمة والمجتمع المسلم من خلال شخصيات رواياته لكي يصور ما يكابدان من الآلام وما يتجاوزان من العقبات الحرجة، فيحزن على تحول السادة عبيدا، والعبيد سادة. فمعاناة المسلمين في العالم أيام حياته من قتل ونهب واغتيال وإراقة دم جعله ثوريا في أكثر كتاباته وأعماله، ويكون إنتقائيا في الشخصيات التي لها سمة ثورية أو دعوة للتنافس أو في الأحداث التي فاز فيها المسلمون بإيمانهم القوي ماديا أو معنويا.

ولو كانت هذه هي السمة المتميزة في تشخيصه في القصة "عمر يظهر في القدس" نستطيع أن نطبقها في قصصه غيرها، فواضح أنه كان يحاول أن يصورها على أساس العقيدة، وأن يفسر مجتمعا إسلاميا تغيرت فيه مفاهيم الحياة من الحرية والعدالة والحب والخير، مما جعل المسلمين يتخلون عن دورهم في الحياة. إنه يهتم كثيرا بالواقعية الإسلامية، ولا تعني بهذا أن يحاكي الواقع مباشرا، بل ينفذ إلى جوهر الواقع ثم يكونه في صياغة جديدة. ولو كان هو الطريق الذي يعالج الكيلاني الأدب والرواية بخاصة يمكن أن نلخص بأن "الحالة الإجتماعية الإسلامية" كانت نصب عينه في تناول كل فن من الفنون ولا تفارق هذه الفكرة عن نفسه وخياله أبدا. أما ما يقوم به الباحث هنا في تحليل روايتيه "الظل الأسود" وملكة العنب" فلا بد أن يكون التحليل والنقد من هذا المنظور الإسلامي المقصود بالذات عنده.

---

[1] في الأدب الإسلامي المعاصر، دراسة وتطبيق ، محمد حسن بريغش.

المبحث الثالث

رواية "ملكة العنب" دراسة تحليلية ونقدية

حبكة الرواية

ملكة العنب: تحكي قصة امرأة اسمها براعم من قرية الربايعة، وكانت بنت أسرة تعمل بالزراعة، وكانت فطنة ذات علم وذكاء، وورثت من أبيها أربعة أفدان، وزرعت في كل منها العنب فباعته عند الناس، هكذا تضاعف تعداد الفدان كما تضاعف عدد العمال فيه، وبلغ إلى اثني عشر فدانا، ثابرت في سقيها وإغداقها حتى ظلت تحصد منها بملئ قلبها، وأصبح الفلاحون يقلدونها في زراعة العنب، حتى أصبحت غنية على مر الأيام بجدها وجهدها، وكانت فاهمة جدا عن نعمة قيضها الله في حياتها، فعرفت فيما تنفق مالها وفيما لا تنفقه، فمدت يد المعونة إلى كل محتاج وملهوف في القرية، بما رزقها الله من الغنى، وشاركت في الأعمال الخيرية، لم توجد في الربايعة نشاطات صالحة إلا وللبراعم فيها نصيب وافر. وحصلت على نفوذ واسع في المجتمع وتحولت إلى قرة عين القرية، واتسعت رقعتها، وذاع صيتها بين الناس وأصبحت وجيهة القرية، وامتد هذا النفوذ إلى من ذوي سلطات عالية. واعتبر القرويون مخالفتها شيئا من الجريمة، كلهم يحترمونها وينادونها "ملكة العنب" على سبيل التكريم.

وكان لهذا التغيير أثره في القرية، ذات يوم قام الأستاذ محمد حسب الله خطيب المسجد في منبره، وذكر الناس على وجوب إعطاء الزكاة للعنب بحسب نصابه، شارحا للأحاديث النبوية ومفسرا للآيات القرآنية ومحللا لآراء الأئمة الأربعة وقال بين الخطبة إن الزكاة حق الفقراء والمساكين ومن منعها فقد ظلم ومن أديها فقد فاز. فأصبحت مسألة فقهية عن زكاة العنب حديثا في كل كوخ وقصر، وساد اللغط بين الناس فتفرقوا بين مخالف وموافق. وصاح عوض العوضي "إذا لم نأخذ حقنا بالشرع نأخذوه بالقوة". ولم تطلع الشمس في اليوم القادم إلا وانتشر الخبر إنتشار النار في الهشيم، وذلك أن اللصوص سطوا على

حقول العنب، وعاثوا بالفساد. فزارت براعم محمد حسب الله ونبهه عن الفتنة المتوقعة في القرية، بسبب خطبته في المسجد. فتفرق الناس على مسألة فقهية وحمي وطيس النقاش حول زكاة العنب مالها وماعليها، ولم يتراجع حسب الله عن رأيه في زكاة العنب.

حتى اضطر أحمد علام رئيس مجلس الأعلى في القرية إلى عقد إجتماع وقال فيه "إن ما يهمنا هو أمن البلد، وتلاحم الحزب مع الآخرين، وأخوف ما أخافه هو أن يكون وراء ما يحدث الآن تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيين، وأن قضية الزكاة شخصية بحتة، يمكن أن يأخذ لكل الفتوى بحسب ما يروق له"

بينما كذلك، صاح رجل من الخارج "قتيل في عنب براعم". فعثرت الشرطة على جثة "مصطفى السلاموني" من حقل براعم، ولم تستطع الوكالات تحقيق القضية. ولم يلبث حتى انشغلت القرية بقضية أخرى أكثر مصيبة، وذلك، حين جاء خبر من المسجد في مكبر الصوت أن رجلا يبلغ عمره ثلاثة وثلاثين، أُتِيَ بميته من العراق، بسبب قتله أثناء حربها مع إيران. فثارت ثائرة القرية واندفعوا إلى الشوارع، وهتفوا ضد الحكومة المصرية هتافات معادية، واحتجوا على تكاتف الحكومة مع العراق التي تقتل أبناءها، ولا يعطي لحياة الإنسان قيمتها، والتهبت غاضبة. وأثناء المظاهرة قبضت الشرطة على محمد حسب الله، وكان يحتج حتى بعد أن تشتت الناس من المكان، كما قبض على اللص عوض العوضي، والحشاش راعي كشك، واقتادتهم إلى السجن، وعلى التصريحات التي أعطاها العوضي وراعي كشكل تم القبض على أبي المجد شاهين ايضا، وكان صوفيا.

ووكلت ملكة العنب براعم المحامين لأخذ الإجراءات اللازمة لإنقاذ المعتقلين من القرية، فاهمة أنهم اعتقلوا بدون سبب وافتراء. وأعطوا لهم جنيهات للإفراج عنهم، ثم أسلمت زمام الأمور عند سعد الدباج وكانت ذات نفوذ في السلطات في الوزارة الخارجية، وتحقق حلم القرويين والمعتقلين، وأقامت براعم إحتفالا كبيرا بمناسبة استقبال المتفرجين من السجن، وبينما كذلك، جاء خبر حرب العراق مع الكويت فأزعج الخبر الناس لأن كثيرا من الناس كانوا يعملون هناك.

ثم تجددت مسألة قتل السلاموني، فقبض على محاسن زوجته، والراعي كشكل، لأنهما اتفقا على قتله لكي يزوج كشكل زوجة السلاموني محاسن، وقتلاه وأخذا من عنده نقوده والقيا جثته في حقل براعم.

ذات يوم قال محمد حسب الله، عندما اجتمع الناس في المسجد، أن يكرموا جميعا براعم على نشاطاتها الخيرية، وتفانيها لأبناء هذه القرية، ولم يختلف أحد إلا أنهم أخذوا الأمر مأخذ الجد، وكانت الهدية نسخة القران، وذهبوا جماعة إلى بيتها فقدموا لها، فانشرحت صدرها.

وإن أبا المجد شاهين كان من وجهاء القرية، لا تضرب توصياته على الجدران، ولما لقيته يوما تكلم أبو المجد معها عن الزواج واقترح لأجلها رجلا كان تعظمه بعلمه ونقاء حياته، إسمه، محمد حسب الله، وإن تسبب هذا لبعض من الشجار بين رجال القرية ونساءها، على أنه ليس متكافئ لها، ومنزلتها عند الناس تطلب لها رجلا عال المنصب كريم النسب، وانتهت هذه المكالمات كلها إلى زواج محمد حسب الله، ببراعم ملكة العنب.[١]

تحليل الرواية

تعتبر رواية ملكة العنب من آخر الروايات للأديب نجيب الكيلاني، كتبها في قريته شرشابة عام ١٩٩١م. وقد نشرت للمرة الأولى عام ٢٠٠٠م. يقول حسن بريغش في مقال له: رواية ملكة العنب رؤية تحليلية "هذه الرواية- ملكة العنب – نموذج جيد للقصة الإسلامية الحديثة، حيث تخطى فيه المؤلف حاجز التوجس والتردد، وعبر من خلالها – بحق – عن أصالة تجربته، وأدبه الإسلامي، حيث أعطى موهبته كلها، وعطاءه الواسع لهذا الأدب الذي عرفه وأحبه وخدمه، ولقد كان في روايته واضح الرؤية، صادق التصور، فرسم شخصياته بدقة، وأعطاهم ملامح الحياة الواقعية بكل تنوعها، وألوانها وظروفها"[٢].

---

[١] ملكة العنب، نجيب الكيلاني

[٢] مقال لمحمد حسن بريغش بعنوان رواية ملكة العنب رؤية تحليلية

وأما تأثير الأحداث التي وقعت في حياته أيام دراسته وبعدها كان بالغا، وفي أثناء مرحلته الإبتدائية في عمره حدثت ثورة في قرية شرشابة قادها مجموعة من الفلاحين ضد ملاك الأراضي والإقطاعيين الذين حاولوا هضم حقوق الفلاحين، وتسخيرهم مقابل أجر زهيد، مما جعل طائفة من الفلاحين يقومون بتدمير ساحات من الأراضي الزراعية وقبض على الفلاحين ولكن باءت محاولات الحكومة بالفشل، ويستطيع أن يكون مثل هذه الأحداث الحية في ذاكرته مضمونا لقصصه. وقد قدم فيها نجيب الكيلاني قرية "الربايعة" بمصر، العادية، بأريافها وحقولها، يسكن فيها مسلمون عاديون وأكثرهم فلاحون، الذين يعملون بكد يمينهم وعرق جبينهم، واعتماد معاشهم على ما تستنتجه المزارع وما يربح منها. والقرية بطبيعتها ساذجة، يسودها نوع من التضامن الإجتماعي بين الأفراد، والمودة والتفاهم، وتغلب في سجيتها مشاعر الحب والإنسانية والعطف، ولا تقتحم إليها عنف المدينة وثقافتها الميتروبوليتية. وأما جعل الكيلاني قرية الربايعة خلفية القصة يرجع أولا إلى أن السكان فيها تنطبع بثقافة إسلامية مع ما لها من ملامح قروية من حيث إنهم يلجئون إلى فتاوى العلماء للمسائل التي تتعلق بالمعاملات والأعمال، ويحتل العلماء والصالحون مكانا مرموقا بين الشعب، على صدقهم وإخلاصهم وحياتهم الدينية حسب شريعة الله والقرآن والسنة. ولا بد أن يكون جانب آخر للقرية، من وجود الناس العامة، الذين كل همهم "جمع المال" أو الحياة الساذجة والأعمال الفاسدة التي يستعملها الإنسان وسيلة للحصول على أغراض تافهة شخصية، والفقراء والمرتزقين المهاجرين الذين يعملون في بلدان أخرى، لكي يكتمل تصوير القرية بتفاصيلها حتى يمكن تشيكل حبكة القصة بشكل متطور. فنجيب الكيلاني يستخدم هذين الجانبين للوصول إلى نهاية ذات ميزة إسلامية كما هو يريد. والفترة الزمانية لأحداث هذه القصة تقع في أواخر النصف الثاني لثمانينات القرن العشرين كما هو واضح من سياق الحرب العراقية الإيرانية والكويتية. أما شخصيات أم حسب الله الخطيب، وجاموستها، ومزارع العنب الممتدة، والفلاح الكادحين، ودور المسجد ومودة أصحاب القرية تجاه أبناءها التي قام الروائي بالتعبير عنها ووصفها حين جاء ميت من

العراق واشتراكهم في عزاء عائلة الميت، وغضبهم على الحاكمين وتضامنهم مع المحكومين المظلومين، تمثل تمثيلا صادقا لعلامات القرية وملامحها.

فالقصة تتشابك بمسائل كثيرة إيجابية وسلبية، وشخصياتها متمثلة للمثقفين والعاميين، فدور المثقفين في توجيه القوم إلى المبادئ الإنسانية الإسلامية العادلة واضح في الرواية وأن المثقفين في القرية يتمثلون في شخصيات الخطيب العالم محمد حسب الله، وصوفي القرية أبي المجد شاهين، وملكة العنب براعم، والعاميين في شخصيات الراعي كشكل، ومصطفى السلاموني، وعوض العوضي، والقوم المحتشدين في المسجد، والثوار ضد الحكومة.

شخصيات نامية وثابتة في الرواية:

إن الشخصية هي التي تحدد الإنسان جسميا، واجتماعيا، ووجدانيا (نفسيا) وتظهره بمظهر متميز للآخرين[١]. وعلى هذا فإن الرواية تتكون من شخصيات معينة يسير الروائي على مطيتها، إلى بغيته المنشودة، الخاصة به، أما إبداعه الفني للشخصية فيمتاز بابتكارها وتجسيدها بملامح هادفة يختلفها عن غيرها، وتكون هذه الميزة هي التي تهدي أحداث الرواية إلى إتجاه خاص للرواية. ولَيحظي الأديب نصيبا في الأدب الفني بقدر ما هو ينجح في بناء الشخصية المحكم، المساعد لتطور السرد. فيستعين الروائي بشخصيات رئيسية نامية ونمطية ثابتة. الشخصية الرئيسية (النامية) هي "الشخصية التي يدور عليها محور الرواية، وليس شرطا أن يكون بطل العمل الأدبي، إنما يشترط أن تقود العمل الأدبي، وتحركه بشكل لولبي تظهر فيه، وقد يكون البطل في العمل مؤديا دورا غير محوري بينما شخصية ثانوية أو شبه ثانوية هي الرئيسية، وقد تكون الشخصية الرئيسية تابعة للبطل أو خصما له"[٢]. كما هو الحال في براعم ملكة العنب، التي هي البطلة في الرواية ومحمد حسب الله الذي هو شخصية ثانوية وابي المجد شاهين الذي هو شبه

---

[١] .المعجم المفصل في الأدب، اعداد الدكتور محمد التونجي

[٢] المصدر السابق

ثانوية. والشخصية النمطية أو الثابتة هي التي تتخذ لتكون انماط الافعال والاحوال يحتاج الرأوي اليها ليصور خلفية القصة والشخصية المسطحة، هي التي لا تزيد في العمل الأدبي عن كونها اسما أو سمة معينة لا اهمية لها ولا تتطور في ادائها، ولا يكون لها دور مهم يثير القارئ أو المشاهد، وهي عكس الشخصية التامة ذات العمق الواضح، والأبعاد المركبة، والتطور المكتمل، ولا بد لأي عمل روائي أو مسرحي ان يكون فيه شخصيات مسطحة إلى جانب شخصيات تامة".[١]

ولكي ينطبع القارئ بالشخصيات المصورة ان الأديب يتوسل ببيان البعد الجسماني والنفساني والاجتماعي إلى ان كل من هذه المقومات دورها الخاص في التأثير في المتلقي فلا بد ان يكون الأديب انتقائيا إلى حد كبير في تصوير جميع الشخصيات الروائية التي لايختلف بعده النفساني بالاجتماعي. ولكن الكيلاني خرج عما هو المألوف عند الأدباء الاخرين– في الوصف الجسماني المتمادي الهادف إلى اشتعال المشاعر الدفينة، مثل القيام بوصف التواءات الجسم والمحطات المغرية خصوصا في بيان "امرأة"، ودخل في البعدين النفساني والاجتماعي.

شخصية محمد حسب الله الخطيب:

هو من الشخصيات الثانوية في الرواية، وبه تبدأ القصة، شاب في ثلاثين من عمره، غير متزوج، مات ابوه وهو في السنوات الأخيرة في مراحل التعليم، تخرج من الكلية العربية، ثم معهد التربية العالى، يسميه اهل القرية رجلا صالحا، مبتسم دائما، اسمر اللون، واذا خاطب الناس قال سلاما، ينم عن وجهه الاطمئنان والسكينة، نقي الملابس، لا يغضب الا لحق، اذا غضب فلا يمكن لاحد ان يردعه من غضبه، فهو إعصار يعصف، ذو ادب وكرامة، استاذ ابناء القرية، وامام المسجد، وهو مرجع الناس في مسائل فقهية، خطباته في المسجد تكون نصائح لاهل القرية بحسب مقتضيات القرية،وحياة الناس فيها، كريمٌ لا يحب الجدل والصخب وما شد كراهيته اذا كان سببا لامر يجلب الفساد إلى القرية

---

[١] المصدر السابق

المطمئنة. وما تابع بخطبته من السرقة والمشاجرات والتدافعات جعله يحزن حزنا عميقا، إنه يضطر إلى حمل عبء مسئولية الفتنة التي تجري في القرية. وقوله في الخطبة كان ذلك مرد كل مشكلات ومسائل القصة التى تدور عليها.

وهو متشبث بأحكام الدين، لا يمنعه تنويهها وتنفيذها ولا يخاف فيها لومة لائم وهو يقول "المنبر ليس بوقا من أبواق الحكومة، ولكنه مكان طاهر تنطلق منه كلمات الله".[١] ولا يردعه من موقفه إلا إذا وجد من القرآن والسنة وأقوال السلف الصالحين ما يخالف قوله.

رجل دين، ومتعمق في علوم الدين، يقول لبراعم التي تلتقي به منذ بداية القصة حينما زارته في بيته "إن عالم الدين لا يأخذ إذنا من أحد حينما يريد أن يقول الحق.. وفي حديث أبي ذر "أوصاني خليلي بأن أقول الحق وإن كان مرا ".[٢]

ويصور الكيلاني شخصيته حين يقول عنه وعلاقته بالناس" إن أهل البلد جميعا يجلونه ويحترمونه، ويعاملونه بمنتهى الإحترام واللياقة، فقد عرف بفضله وعفته، ولم يرتكب عملا مشينا يحنق عليه أحدا، كانت معاركه كلها كلامية، معارك فكر ورأي، وهي مهما حميت لن تنال من كرامته وكبرياءه وحب الخلق له، وأمه كانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تنهره، وتعنف له في القول، بل وتلكزه أحيانا، وتناديه بكلمة "يا ولد" على الرغم من أنه عالم جليل مهاب"[٣]

وشخصيته المثقفة تظهر أثناء تصوير الكيلاني له بعد مظاهرة الإحتجاج، وتم اعتقاله من قبل شرطة الحكومة، حيث يقول الكيلاني "محمد حسب الله رجل ذو خبرة، ولد ونشأ في ظل الثورة، كثير الإطلاع في الصحف والمجلات، ويستمع إلى الإذاعات، ومهتم جدا بالمشاكل الإقتصادية للبلاد.[٤]

---

[١] ملكة العنب ص :١٠

[٢] المصدر السابق ص: ١٠

[٣] المصدر السابق ص: ١٠

[٤] المصدر السابق ص: ١٣٥

إنه مشارك مع أهل القرية في أمورهم العامة، وليس كما هو منعزل عن المجتمع تماما، له دوره ونصيبه في تكوين أهل القرية، وصوت يسمع، وعلامة يعرف بها، "صناع الفكر والرأي فيها"[1] فيكون سجينا من قبل الحكومة، بسبب الإحتجاج على موت رجل في القرية، إنه يندد مظالم الحكومة، ومواقفها السلبية تجاه المجتمع، وإنه ينبهر كليا بعمليات براعم في القرية، في مصالح المجتمع ونشاطاتها، وأصبحت علاقتهما أكثر ودية، حتى أصبح محمد حسب الله، زوجا لنبيلة القرية براعم.

أما شخصية حسب الله فهي جزء لا يتجزأ من الرواية، وتطور أحداثها، وإيصالها إلى نهاية غير متوقعة. وجعله خطيب المسجد يوحي إلى طبيعة القرية المسلمة، وتركيز حياتها الإجتماعية في مسجد القرية، كما يحاول نجيب الكيلاني أن يفتح قفل شخصيته عبر الأحداث و الأشخاص، ومواقفه منها، وتتركها للكلام عنها، مثل أبي المجد شاهين، حيث يقول لبراعم عندما اقترح حسب الله لها زوجا، "ليس فارسا على جواد، حاملا سيفه، ولا يملك رقاب الناس، بل يسير بينهم في الطرقات. ولا يمشي في الأرض مرحا..[2] و وجدانية براعم حين يقول عنها الكيلاني "كانت براعم دائما تقدر محمد حسب الله، وتحترمه لعلمه وذكائه، وكبريائه، لم تسمع عنها طوال حياتها ما يشين، كل شيء عنده رخيص إلا دينه وكرامته، وكل ما في العالم جميل إلا ما خالطه إثم أو ظلم أو فساد، يتدخل في القضايا العامة بقدر ما ينفع الناس....الخ..[3]

شخصية أبي المجد شاهين:

شخصية أبي المجد شاهين تبرز في الرواية كشخصية صوفية. وإن نجيب الكيلاني قد استخدم الشخصية الصوفية في رواياته بشكل واسع، واكثر استخدامها لكي يوضح من خلالها إيجابية وسلبية الجوانب الصوفية. وقد قدم شخصية الصوفية الإيجابية التي هي

---

[1] ملكة العنب ص: ١٣٧

[2] المصدر السابق ص: ١٦٤

[3] المصدر السابق ص: ١٦٥

عين المقصود عند الكيلاني، وهي متحركة تحرك الأحداث في الرواية، وناشطة نشاط الإسلام وحيويته، صفية القلب التي تتبع منها الحب الصادق والمشاعر اللطيفة التي تنكر كل ما هو نقاق وظلم، والشجاعة التي لا تسع لغير الحق، وذلك نرى في"الشخ عبد الله" في رواية عمالقة الشمال و"الشيخ المداح" في قضية أبي الفتوح الشرقأوي و"أبو المجد شاهين" في هذه الرواية، وكذلك سلبيتها عندما يكون موضوعيا واقعيا، ليرى كثيرا من المتصوفين الذين يتمثلون الدين والدين بريء منهم، وإن الكيلاني يهتم أيضا في انتقادهم لكي لا يتساء فهم القارئ في الصوفية، كعدم استعدادهم للمقاومة، واشتراكهم في القضايا الإجتماعية. ولا يختلف إثنان في القرية على ولايته وقد حل عند الناس في منزلة المحبين كما يقول عوض العوضي الفقير.

"حك عوض قفاه وبدت الحيرة على وجهه وقال متذللا "لكن أبا المجد رجل من أولياء الله الصالحين لا يضرب ولا يقتل وفي طهارة عيشه وصفاء قلبه عندما تقول له براعم "انت أطهر القلوب في قريتنا."[١]

وليس هو متخل عن المظاهر الصوفية المتعارف بها لدى الناس من تطويل الفكر والإعتياد في ذكر الله، وتلاوة القرآن، والتسبيح، والتواضع وعدم الإنتباه إلى ما لا يعنيه والتحاشي عن كل شيء يخاف منه تعكير صفوة الحياة. وكذلك قلة التعرف عن نواميس الحياة المبعثرة لأن سيره في إتجاه واحد كما هو في بداية القصة.

"لم يكن له سابق معرفة عن السجن وأحواله" و"أنا رجل فلاح... دعاني الداعي في ظلمة الليل فلبيت النداء ودموعي تسيل على خدي ولحيتي... ناداه قلبي"[٢] وكما يعرف من سيرته الذاتية أن الكيلاني قد تأثر في بعض الصوفيين في عصره،[٣] الذين كانوا متدخلين

---

[١] المصدر السابق ص: ١٠٩

[٢] المصدر السابق ص: ٦٥

[٣] ومن الشخصيات التي اثرت في حياة نجيب الكيلاني خارج مراحله الدراسية شيخ الطريقة الصوفية الأحمدية الشيخ محمود احمد المداح الذي قال عنه الكيلاني " مجرد مشاهدته توحي بالراحة والاطمئنان والاجلال".

في قضايا الناس، ومتحسسين بمفاجعهم. ولعل السبب في اتخاذه الصوفي شخصية الرواية، يرجع إلى أن التصوف، على الرغم من نزاهته وقوته في تزكية الناس وتربيته، قد أصبح منحرفا عن سبيله، بسبب تفسيرات غير معقولة لا تمت إلى الإسلام والدين بصلة، كما أصبح عرضة لاتهامات مزيفة، والفرض عليه ما لا يليق به، مثل وجوب الإنعزال التام عن الدنيا لأنها دار غرور وزخارف، متناسيا عن مسؤولية الرسالة والدعوة. كما يرجع السبب إلى اطلاعه على الصورة النمطية للشخصية الصوفية، التي عالج بها كتاب العالم، حتى كتاب المسلمين العرب، من أنه "درويش مغفل، يتصوف لأجل المال، وثقيل الظل على الناس". يقول الأستاذ أبو ملحة " وإذا كانت كثير من الروايات العربية تصور الصوفي متعلقا متلهفا على المال – وإن ادعى الزهد – فإن روايات نجيب الكيلاني تصور هذا الزهد حقيقيا، وله أثره الإيجابي في شخصية الصوفي، فيجعلها أبية على الذل، عصية على الهوان، كريمة مطاعة – كما يصورها نجيب الكيلاني – فقد كان زهد الصوفي سببا رئيسيا لشجاعته، تلك الشجاعة التي أورثته إعجاب الناس به، وحبهم له، فبعد أن رفض الشيخ الشاذلي دعوة سلطان لإستقبال عثمان باشا في رواية "رأس الشيطان" "نظر الناس إلى رجل لا يملك مالا ولا سلاحا، لكنه لا يرضخ لأوامر الباشا، ولا يكترث لها، يالها من حقيقة رائعة....!!! الشاذلي المتصوف أقوى من الباشا الوزير، لم يمت الأمل بعد أيها المعذبون مادام هناك رجل طيب أقوى من الباشا..... وبدا الشيخ في نظرهم عملاقا جبارا يستحق الإحترام".[1]

فشخصية أبي المجد شاهين، تبدو لوهلة أولى أنها سلبية لا تعلق لها بالمجتمع وقضاياه، لأنه ممن يظهر في أوائل الرواية زاهدا وَرِعًا، كأنه لا يريد الخوض في مثل هذه الأمور، ولكن ما يريد به أبو المجد شاهين واضح وموقفه من هذه الفتنة في القرية جلي. ولذلك أن الكيلاني يستنتج منه شخصية إيجابية قادرة للإرتقاء، موحيا أن الصوفي الجيد لا يستطيع له أن يكون مكتوف الأيدي عندما تتحقق عنده أسباب المقاومة، أو المعانات. فليس هو

[1] الشخصية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني د. ابوملحة.

سلبي في شخصيته كما يقول البعض ولكن إيجابي من أول الرواية إلى نهايتها، لأن السلبية والإنطوائية لا تُحكَمان إلا إذا اتفقت لهما ظروف صالحة للتوضيح به، أما صلاحيته وتكريم الناس به واحترامهم له أدل دليل على أنه كان من شرفاء القرية في تربية الناس وتزكيتهم. أما النظرة في شخصية أبي المجد من خلال ما قال في بداية القصة وما له من أقوال تنبئ الإنطوائية ليس مما يدل على سلبيتها.

"ليست لدي الصلاحية ولا المؤهلات التي تجعلني حكما في مثل هذه الأمور، لكني أقول أن الإسلام إنما جاء ليجمع الناس على كلمة، سواء لا ليفرقهم، وليتحابوا لا ليتباغضوا، أقول لكم لا يدخل الجنة من نام، وجاره شبعان... وأقول أيضا: إن الزكاة أو الصدقة تطهر المال وتنميه، وتقرب القلوب، وتطفئ الأحقاد، فالتستعينوا على هذه الفتنة بذكر الله وتسبيحه، والصلاة على نبيه الكريم، الذي مات ولم يترك درهما ولا دينارا ولا شاة ولا بعيرا.." [1]

إنه لم يكن يؤثر العزلة، وهو يتداخل مع القوم في إبداء رأيه حيث يقيمه الناس، ويستمع الناس إليه وهو حافز فعال في تطوير القصة من بدايتها إلى آخرها. التي أدت إلى زواج براعم ملكة العنب بمحمد حسب الله.

شخصية براعم :

براعم هي البطلة في هذه الرواية، تدور الأحداث كلها حولها، ونسج ثوب القصة لأجلها، ومنها تبدأ القصة أن تعقد، وبها تنتهي القصة. وهي من أجمل الشابات في القرية، صورتها فاتنة، "ووجهها نضر، مشرق بالحيوية، والشباب، والسمرة الخفيفة وعيناها كأنهما مكحولتين واسعتين، ورموش طويلة، وفم دقيق". وهي ترعرعت يتيمة، ثم ورثت من أبيها تركته، تحولت إلى محط أنظار الناس، ويشيرون إليها بالبنان، يعتبرها الناس نورا للبيت، وهي ست البلد وبنتها، وهي حاجة ولم تتزوج.

---

[1] ملكة العنب ص: ١٤

وهذا هو العاطفة العامة تجاهها لمن في القرية، وان ظهورها في القصة يكون بعد أن أصبحت ملكة العنب ولم يحاول الكيلاني أن يلتفت بتفصيل إلى حياتها الأولى إلا أنها إشارات عابرة وخاطفة حين يقول عما في ضمير محمد حسب الله عنها "إنه لا ينكر أنها شجاعة وذكية، ومغامرة، حين مات أبوها خرجت إلى الحقل تزرع وتحصد، كانت أمها معتلة الصحة، وكان لها أختان صغيرتان، وكانت أول من أدخلت زراعة العنب في القرية على نطاق واسع، بدأت بزراعة أفدنتها الأربعة التي تركها أبوها، بعد أن نجحت أخذت في استئجار المزيد من الأفدنة بأثمان مغرية، حتى أصبح اليوم ما تزرعه يزيد عن ثلاثين فدانا، وكان من الطبيعي أن تتزعم ما يمكن أن يسمى "نقابة زراع العنب"، فهي التي تختار المبيدات الحشرية، والأسمدة المناسبة، وهي التي تحدد مواعيد الحصاد، وتتفاهم مع كبار التجار للحصول على أعلى سعر، ومن هنا أطلقوا عليها "ملكة العنب".[1]، فأسرتها، وبيئتها، وطفولتها حتى صورتها الجسمية لم ينفق لتفاصيلها صفحات، إلا سطورا قلائل، كأنها هامشية لا تتعلق بالقصة تماما، وكانت هي في حالتها الحيوية والنشاط كانت محور القصة...ولذلك أن شخصيتها تطور حسبما تطورت بها الأحداث، ولا يقوم الكيلاني بكل تفصيلاتها بدفعة واحدة إلا أن ترك الأحداث والأشخاص فرصة التحكم عليها. وإنا سنقوم في هذا البحث باظهار شخصية براعم حينما نقوم بالقضايا الإجتماعية في الرواية، لأن الشخصية الأنثوية لبراعم التي تتضامن مع الأشخاص والأحداث في القرية، هي الهدف المقدم أو القدوة المثلى التي يتعمد إليها نجيب الكيلاني أن يعبر عنها جميعا كما هو ظاهر في عنوان الرواية "ملكة العنب".

وهناك شخصيات ثابتة نمطية كل منهما يتمثل في أحمد علام" رئيس المجلس الأعلى في القرية، يأتي لإقتراح حل المشكلات في القرية والتحكم عليها، والسيدة سعد الدباج، التي ساعدت براعم لإفراج المعتقلين في القرية وطلاب الجامعية شاركوا في الثورة وبدأو بها، والرجل الميت الذي أتي من العراق، والعاملون والفلاحون.

---

[1] المصدر السابق: ١١

واللص عوض العوضي نمط شخص قروي فقير مشاغب، يسرق أموال الناس لما يحدق به من الفقر الشديد، والسيدة مسعدة أم حسب الله، نموذج للمرأة القروية غير المثقفة، ولكن طيبة القلب في التعامل مع الآخرين والجيران، وعاملة تقتات وابنه بكسب يدها، وفرحها وحزنها منوطان بجاموستها، وأنها تتحدث معها كما تتحدث العاقلين، كعادة القرويات الفلاحات، يعتمدن على لبن جاموستها للمال. والحشاش الراعي كشكل نمط فلاح القرية قليل الخير والثقافة، الذي لا يهمه إلا أمره، وهو يقول "ويثور الراعي قائلا في حدة وقد احمرت عيناه، مزاج يا أخي... أنا حر... لن يحاسبك الله على أعمالى، ربما تعرف الكثير عن ذكر الله، ولكنك لا تعرف إلا القليل عن أحوال الدنيا"[1]. وأخلاقه ليست بجيدة، وانه يتفق مع امرأة مصطفى السلاموني على زواجها فيقتلان السلاموني لذلك، و السلاموني أيضا نمط قروي الذي لا يحسن عنده عيش عائلي، تزوج ثلاث نساء وقتل اثنتين منهما بسبب أو بآخر، وأخيرا انه تزوج محاسن التي وقعت نهايته بمكرها.

[1] ملكة العنب ص: ١٤

المبحث الرابع

القضايا الإجتماعية في رواية "ملكة العنب"

الحالة الإجتماعية لمجتمع هي عبارة عن عاداته، وعقيدته، وتقاليده، وثقافته، وسياسته، وحالة إقتصاديته. ولا يصح الحكم على قضية من قضاياه الإجتماعية إلا بالوقوف على الظروف الخاصة التي تتعلق به، وعسى أن لا توجد قضية في المجتمع الذي يؤمن بعقيدة خاصة أو يعيش بطريق خاص كما هي عند مجتمع آخر، الذي لا يؤمن بهذه العقيدة ولا يعيش في طريقه. وذلك، أن تعاليم عقيدة واحدة تطلب من أصحابها أن يعيش عيشا صالحا ملائما لها، كما ترى أسالب الحياة وأعمالها اليومية تخلتف إختلافا تاما من واحد إلى آخر، بحسب ما تتطلب من المجتمع لوازمه العقائدية والإجتماعية. إذ تتغير مفاهيم القضايا وجزئياتها بحسب الحياة الثقافية والعقدية، والمجتمع الذي تنطلق منه تلك المفاهيم. ولذلك نجد أنماط الحياة المتنوعة في مختلف نواحي العالم، وهذا الفرق واضح فيما نجد من الوضع الإجتماعي من الحياة الشرقية الروحية والحياة الأوروبية المادية وفي تفسيرعاداتهما وثقافتهما.

وكما أشير إليه سابقا، أن الكيلاني كان ممن يحب تصوير حالات مجتمعه، ومعاناته، ومشكلاته، وكان يؤمن أن لكل بيئة مشكلاتها الخاصة، واحتياجاتها المتميزة، ومعاملاتها السياسية. إن هذه الرواية – ملكة العنب– تهتم أولا وأخيرا تناول قرية مجتمع مسلم في عقيدته وثقافته. وهذا التناول يتم تطبيقه بأخذ قرية الربايعة قرية مصر، عينة لمضمونها، ثم يسوغ منها مثالا لرسالته الدعوية. فالقضايا الإجتماعية التي تعالج هذه الرواية ليست محدودة في قضايا قرية الربايعة أو قرى مصرية، بل قضايا المسلمين في العالم أجمع، الذين يجتمعون كمجتمع مسلم خاص. ولكن اختياره للقرية المعروفة لديه، مكنه أن يقدمها بالصدق والأمانة. إن شكل المجتمع المسلم، لا يوجد إلا في إطار معين يتم تكوينه بحسب أمور إيمانية وإسلامية. ولا يتصرف المجتمع المسلم في الحياة عشوائيا بل يخضع لضوابط

عقلية وعقدية تسير حياته وتنظمها. وليكون الإنسان مسلما، عليه أن يؤمن بأركان خاصة مقسمة إلى أركان الإسلام الخمسة وأركان الإيمان الستة. أما أركان الإسلام هي: ما روي عن عمر رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان..[١]. وأركان الإيمان الستة هي: ماروى البخاري في صحيحه "لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى).[٢]

إن ما يهم الأمر هنا بهذه الأحاديث النبوية، هو "النقل التراثي" الذي انبثق منه ولا يزال كذلك، شكل المجتمع الإسلامي وأن رواية ملكة العنب تعالج جانبا عقائديا إلى جانب القضايا الإجتماعية الأخرى وأن الحدث المهم في الرواية هو "**إعطاء الزكاة**" الذي هو ثالث أركان الإسلام، والذي لا مفر منه لمسلم إن كان عنده ما يوجب عليه الزكاة من النصاب. وكان تركيز نجيب الكيلاني أيضا في مشروع الزكاة الذي سيحدث تحولات إجتماعية هائلة ويستجيب لإحتياجات المجتمع الأساسية من القضاء على الفقر، والقيام بعمليات الإسعاف، والإغاثات. وذلك باستخدام الزكاة وإثارتها قضيةً من قضايا الدينية التي يجب العمل بها كل مسلم، بإخلاص وخشيةِ الله، حتى أن الناس عرفوا أهميتها وهي ما لا يمكن أن تقوم بها أية حكومة حافلة بالرشوة والقلوب المريضة لأن مشروعها لا يتوصل إلى مستحقيه، وإن كانت هذه الرواية تثير خصوصا قضية المرأة في مجتمع مسلم، أنها تسلط الضوء على كثير من قضايا أخرى مهمة إجتماعية وسياسية، إلى جانب ثقافة المسلمين العامة وكيفية تشكيلها مثل تعلقهم بالمساجد ودورها في تثقيف المجتمع وحالة الفلاحين والعاملين في القرية، والحالات السياسية الفاسدة وما يترتب منها من البطالة والإحتجاجات فإنه يقوم بتصوير فقر قرية الربايعة، الذي أدى إلى نهب حقول

---

[١] رواه البخاري في صحيحه رقم الحديث ٧

[٢] رواه مسلم والبخاري

العنب. كما تكون الرواية خير مؤشر إلى الأحوال الدينية هناك، والأسرية.. فنجيب الكيلاني يصور قرية "الربايعة" المليئة بالحقول الزراعية، وفلاحين وعمال فقراء، وعامة الناس المسلمين، يجمعهم في أمور الدين المسجد الجامع الذي هو جزء لا يتجزء من حياة مسلم مكلف وسلطة دينية متمثلة في خطيب المسجد والصوفي أبي المجد شاهين، وتفرقهم في أعمال كثيرة في داخل البلاد وخارجها، وتختلف مستوياتهم الإقتصادية من الفقر والغنى، وحكمة امرأة مثقفة توحدهم في أعمال الخير ومصالح المجتمع ورجال السياسة وعمالها يتدخلون في أحداث القصة لاستكمالها. "وان قرية نجيب الكيلاني قرية قادرة على الحوار والمناقشة وتفتح صدرها للآخر ولا تنكمش على نفسها، وفلاحوها متطورون، وقادرون على تجديد رؤاهم، وتغيير مواقفهم إلى الأفضل دائما".[١]

"ونجيب الكيلاني يهتم – بشكل خاص –بالإلحاح على المشاكل الإجتماعية وكشف بعض ألوان الفساد والأمراض الإجتماعية كما نرى ذلك جليا في معظم أعماله، إذ يعني بعرض الأمراض الإجتماعية، بهدف تسليط الضوء على عواقبها الوخيمة، في حياة الفرد والمجتمع، فنجد في رواياته يصور الفقر والعوز" [٢]وكذلك محاسنها وخيراتها في الوحدة والتضامن الإجتماعي. ولعل أكبر القضايا المطروحة في هذه الرواية هي قضية المرأة التي لا تزال هي من أولويات محاور النقاش في الدورات الإسلامية عالميا. وهنا، من خلال تحليل هذا التركيب الاجتماعي من هذا النوع، وانتقاء الأحداث التي تؤدي إلى تعقيد القصة ثم حلولها في نهاية ممتعة، أن الروائي يريد أن يثير بعض القضايا المهمة في المجتمع المسلم. فيكون جهد الباحث هنا أن يوضح هذه الجوانب الإجتماعية تأثرا وتأثيرا.

---

[١] قراءة في رواية ملكة العنب د. حسين على محمد

[٢] صورة المرأة قصص نجيب الكيلاني دراسة نقدية وتحليلية د. حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي.

قضية المرأة

إن المساحة التي خصصها الكيلاني للشخصية الأنثوية في رواياته كانت واسعة جدا، لكي تفسح للشخصيات الأنثوية الإيجابية التي تتمثل أُمًّا وفتاةً وزوجةً وأُختًا وتاجرةً مثقفةً..الخ. والسلبية التي تتمثل في المنافقة والعاهرة والفاسقة وغيرها كشخصية أولى أو ثانية، وأثناء تشخيصها أنه حاول تصوير المرأة مع علاقتها الإجتماعية والفكرية، ولا يشق على الباحث في رواياتها أن يرى أنّ مثولها في روايات الكيلاني كان عن قصد تام وتخطيط سابق. فتقول الباحثة حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي في بحثها "أما أغلب القصص والروايات (لنجيب الكيلاني) فنجد الشخصيات المحورية فيها قاسما مشتركا بين رجل وامرأة ففي رواية "رمضان حبيبي" نجد (أحمد وجبلية) وفي "النداء الخالد" نجد (أحمد شبلي وصابرين) وفي "مملكة البعلوطي" (إبراهيم والبابلية مباركة) وفي "ملكة العنب" (محمد حسب الله وبراعم) وفي "الرجل الذي آمن" (شمس واريان) وفي "امراة عبد المجتلي" (عبد المجتلي وامرأته أم صابرين) وفي "طلائع الفجر" (إبراهيم وروز) وفي "رحلة إلى الله" (عطوة الملواني ونبيلة) وفي "الذين يحترقون" (محمد وكاميليا)."[1]. أما قصصه القصيرة ورواياته التاريخية والإجتماعية والسياسية، تحتل المرأة فيها مكانا لا بأس به. وقبل القيام بتحليل قضية المرأة في ضوء رواية – ملكة العنب – التي جاءت شخصية المرأة كألأولى والرئيسية، والرسالة التي نادت بها الرواية في حق المرأة المسلمة إلى جانب القضايا الإجتماعية البارزة فيها بالتبعية، لدينا أن نبحث عن الأسباب والدوافع الهامة التي جعل نجيب الكيلاني يتخذ موقفا خاصا من المرأة مع بيان البيئة المصرية الثقافية التي لها دور هام في تشكيل الموقف الفكري عند نجيب الكيلاني، كما هو عند أدباء المصريين الآخرين، ضامنا بأن لا يذهب هذا البيان إلى إطناب واستطراد، على أنه موضوع واسع، غير أنه مما لا مندوحة لي من أخذ ما أحتاج منه إلى تحديد الموقف الأدب العربي من المرأة بصفة عامة ونجيب الكيلاني بصفة خاصة.

---

[1] المصدر السابق ص: ١٤٠

إن مصر كانت هي من أولى مسارح الدعوات والنداءات لتحرير المرأة في العالم العربي، وكانت ذات حساسية كبيرة تجاه هذه القضية، منذ أن دقت أجراس النهضة في عتبات بابها. ولِمَا كان لمصر من الأهمية الإستراتيجية من العالم الغربي، وكذلك العالم الإسلامي والعالمي، تأثرت بأفكار غريبة فتنوعت مواقفها من المرأة كما هي الحال في جميع المجالات الثقافية، وبدأت تنفرد شخصيتها الأنثوية من رصيف الدين وتلهفت لاتخاذ ذاتٍ مستقلٍ على حساب الإنسانية. وأصبحت نفس القضية مضمون كثير من الكتاب والصحف والأدب الفني والعلمي، وصاغتها في بوتقة ما يروق للمفكر به، أو الكاتب، أو الأديب من حكم ومواقف. وصارت هي من أكبر القضايا الإجتماعية على أنها قبل كل شيء كلام عن نصف البشرية وعبوديته وظلمه. وقد تصدى لها عديد من الكتاب والأدباء منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد بدت معالمها من زيارة رفاعة الطهطاوي[١] إلى فرنسا وتأثيره في نساء الغرب وجمالها وتحريرها من القيود في الرقص وتساويها مع الرجل واخطلاتهن معه.

حيث أبدى رأيه في المجتمع العربي خلال كتبه الأدبية والفكرية أمثال "تلخيص باريز في تخليص الابريز" و"مرشد الامين للبنات" وغيرها. وفي هذا الرأي كان منفتحا إلى حد أن يكون خارج الإطار الإسلامي الصحيح المستقيم. ولم يتوقف إلا أنه تواصل الجهد فيه، ليكون الأمر فيها أكثر وضوحا. "يدعو بلده إلى تقليد النموذج الفكري في عبارات صريحة أو ضمنية ويعلن في إشارات واضحة أو تلميحات مفهومة حُبَّه وتفضيله للحرية والمساواة ويقول تأكيدا ودفاعا أن "حريتهم" إنما هي عدلنا وإنصافنا الإسلاميان".[٢] ثم نقلت أفكار تحرير المرأة في كتاب قاسم أمين(تحرير المرأة)، ثم تبلور موقفه في كتابه (المرأة الجديدة،

---

[١] رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١– ١٨٧٣) يعد من قادة النهضة الحديثة في عهد محمدعلي، وقاد بعثة مصرية عام ١٩٢٦في سفرها إلى فرنسا وتأثر تأثيرا بالغا بالحضارة الأوربية وحاول للالتقاء بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الأوربية.

[٢] العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة د. عزت القرني

١٩٠٠)[١]. وكانت الدعوات حينها تدعو إلى تحرير المرأة من الآداب الإسلامية والأحكام الشرعية الخاصة بها "مثل الحجاب، وتقييد الطلاق، ومنع تعدد الزوجات والطلاق، والمساوات في الميراث"

وقد أخذت تلك الدعوات في الإنتشار في المجتمع المصري، واحتدم نقاشها عن "دور المرأة في المجتمع"، "وعمل المرأة" وعن "الثقافة الذكورية والأبوية" خاصة عندما ساعدتها في هذا المجال حركات نسائية، وثقافية علمانية،[٢] وطافت أحداث الأدب الفني مثل القصة والرواية حول هذه الأفكار التي تتمثل في الحب، والحرية الفردية أو المطلقة. فقد اتخذت الروايات العربية أشكالا في تنويع الحرية للمرأة، لتكون الروايات زاخرة بالإغراءات الجنسية والإباحية، والزواج المفتوح، ورفض الأُسرة، كما نرى في روايات إحسان عبد القدوس _ مثل رواية **(أنا حرة)**.[٣] أما الوضع الإجتماعي المصري و إن كان فيه ما يبرر – إن لم يكن كليا– هذا الموقف الأدبي من المرأة في مجالات التعليم، والأسرة، والزواج،[٤] ولكن ما اتجهت إليه المواقف الأدبية والفنية لم يكن صالحا للدين، ونظرته إليها والإسلام بخاصة على أن من شأنه أن يطبق بعض القوانين الشرعية على أفراد المجتمع من ذكر وأنثى. فلا غرو، أن هذا التحول الإجتماعي المتمثل في المرأة أدى إلى تزايد نزعة إتهام الدين، وجعله سببا لهذا التخلف الإجتماعي بخاصة في وضع المرأة، والتناسي عن دور أفراد ذات

---

[١] قاسم محمد امين (١٨٦٣–١٩٠٨) صاحب دعوة السفور للمرأة وتجريد المرأة من حجابها وأديب وناشط ومصلح اجتماعي.

[٢] انظر كتاب الحركة النسوية وخلخلة المجتمعات الإسلامية المجتمع المصري نموذجا تحرير الهيثم زعمان

[٣] انا حرة هي رواية لاحسان عبد القدوس (١٩١٩– ١٩٩٠) أديب مصري صحفي. موجز القصة: أمينة كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وهي محط انظار الشباب ولم تختر لنفسها الا عباس، وقعت في حبه، وهي ترفض كل طقوس الإجتماعيةوتثورعليها، ومع انها لم يتزوجها فانها جعلته كل حياته، لا يهمها من نفسها شيئ الا ان ترضيه، نامت معه واستيقظت معه، وفكرت في نفسها انها حرة مطلقة.واذا سأل احد متي تتزوج فتصرخ: انا حرة

[٤] The Arab Human Development Report 2005, towards the rise of women in the Arab world, United Nations Development Program.

أغراض شخصية على ظلم المرأة، وتعذيبها، وسوء المعاشرة معها وبراءة الدين(الإسلام) منها جلية.

"وتنوعت صورة النساء بين صورة المرأة المتحررة اللامبالية والمرأة المتألمة والمرأة المأزومة والمرأة الضحية والمرأة المغدورة وندرت صور المرأة السعيدة." و"احتل الجسد النسائي موقعا أساسيا في روايات النساء كموقع قهر واستلاب وموقع حب ورغبة وواقعيا ورمزيا في محاولتنا لمتابعة ظهور جسد المرأة في رواياتها والكشف عن تفاصيله وعيشه اليومي وعلاقته بالآخر كمصدر لذة أو خصب أو حب أو حرية وقهر وعذاب وموت"[١]

فاستدعت الحالة، أن يكون محبو الأدب من القصة والرواية مضطرين إلى قراءة ما يدغدغ حواسهم، ويدفعهم إلى إثارة غرائز الإنسان البهيمية، ويشوش في أفكار الطامعين في الأدب مفهوم المرأة والرجل وعلاقتهما، وحريتهما، فمفهوم حرية الإسلام في الرجل والمرأة أصبح مغلوبا بالحرية الغربية العلمانية.

ففي مثل هذا الوضع الاجتماعي، لم يكن من بد أن يكون الأديب الإسلامي ذا موقف منها يختلف موقف الكتاب السائدين. وقد تصدى نجيب الكيلاني لهذه القضية في الأدب العربي وقد قدم نظرية في تقديم المرأة كما قام بالتفصيل في كتابه "مدخل إلى الأدب الإسلامي"، أما انطلاقه فكان في إتجاه معاكس لهؤلاء الأدباء. قدمها شريفةً نبيلةً ذاتَ رأي وعلم تنبيها إلى أن لا توجد هناك من الحواجز أو العراقيل تمنعها من الشرافة والنبالة. وعندما اتجهت الروايات لإيضاح عبودية المرأة إلى خلائع شهواتها وعدم استطاعة تحقيقها كما تحب وتشاء، وإلى ممارستها للدين أنه قام بتوضيح أن شرافة المرأة ونبالتها ليست في مفاتن الجسم وملتوياته، والغنجهية التى تتمرد على أمها وأبيها، كما ليست في أن تكون متشرفة لكل من يستهويها، بل في أن تكون لها مواقف من الدين والمجتمع والسياسة، ومتواضعة، ومداخلاتها في المجتمع لتصلحه لا لتفسده، لأن الإنسان مخلوق مكرم لا ليعيش عيشة البهائم. وإن معالجة قضايا المرأة في رواياته ما جاءت من فراغ بل ناجمة

---

[١] الإبداع الفني : صورة المرأة في الرواية د. الهام كلاب

عن إحاطته الكلية بأساليب التقديم والعرض لها في الروايات العربية وغيرها. يقول الكيلاني "أن تخلي المرأة عن أوضاعها التقليدية، ومزاحمتها للرجل ومنافستها له، وتخلصها من القيود والأعراف التي عاشت في رحابها قروناً عديدة، وتضخم ظاهرة ما يسمى(بحقوق المرأة)، وخروج هذه الحقوق من دائرة الأمومة المقدسة، والرسالة المنزلية والأسرية، إلى مجالات السياسية والإنتاج الصناعي والحرية الجنسية، وأندية الفن واللهو والتبرج، كل هذا وذاك أوجد واقعاً جديداً أكثر حدة وشراسة، وبالتالى أكثر تعقيداً ومشاكل، فكان لا بد أن تضج في مختلف الأنحاء تساؤلات ملحاحة، شغلت رجال الدراسات الإجتماعية والنفسية والتربوية والدينية والسياسية والأدبية أيضا ويقول "فهل في الإمكان أن يسد الأديب المسلم أذنيه عن هذه التساؤلات الصاخبة؟ إنها ظواهر لا نستطيع تجاهلها، وهي تشكل تعقيدات تحتاج إلى دراسة ونظر وتحليل، والأديب المسلم صاحب موقف، ولن يستطيع أن يؤدي رسالته على وجهها الصحيحح إلا إذا واجه تلك المآسي أعني الظواهر بشجاعة ووعي وتصور سليم. ويتبع "ثم يأتي ذلك الموضوع الحساس الذي يتعلق بالمرأة، وحركتها في المجتمع، إن هناك واقع قائم يتعلق بوضعية المرأة، وهناك أمل في تناول هذه الوضعية بالنظر ومحاولة السموبه على ضوء المعايير الإسلامية الصحيحة. إذا برزت المرأة في أي عمل أدبي، انصرف الذهن مباشرة إلى غريزة الجنس، وإلى الحب بمعناه المحدود، وإلى العواطف المشتعلة والإنغماس في اللذة البهيمية، ومايتبع ذلك من تصورات وانفعالات. ولقد تمادت الآداب العالمية في إبراز هذا الجانب الجنسي وركزت عليه، حتى أصبح أمراً يكاد يكون مألوفاً لا يثير الدهشة أو الغرابة أو الإشمئزاز، وغرقت السينما أيضاً في هذا البحر الهائج من الإثارة والإغراء، وأصبحت هناك سينما ومجلات ونجوم تخصصوا في هذا اللون من الفن الساقط. ووجد ذلك قبولاً لدى المراهقين والمنحلين وتجار الرقيق الأبيض، أصبح الجنس سلعة رائجة في سوق الفنون الحديثة، وانتقل الوباء إلى أمم الشرق الإسلامي، وفعل فعله في إتلاف القيم والخلاق، وسمم العواطف والأفكار، ودمغ الأدب بالفساد والرذيلة والمرأة كما يقال نصف المجتمع وهي كالرجل لها أشواقها وآمالها

وتنتابها عوامل القوة والضعف، والنصر والهزيمة، وتستقيم وتنحرف، ولها مشاكلها كعضو في الهيئة الإجتماعية، لكن رسالته الأولى ترتبط بواجباتها الزوجية وبالأمومة، ولقد وضع الإسلام لها إطارا صحيحا تسعد به، وينعكس على المجتمع بالخير والفلاح، كما أوضح لها حقوقها المختلفة في الزواج والطلاق والميراث والتعليم وغير ذلك من الأمور التي لا مجال للاستطراد فيها. والمرأة أمٌّ وابنةٌ وأختٌ وزوجةٌ والمرأةُ قارئةٌ وعالمةٌ وشاعرةٌ وكاتبةٌ والمرأة طبيبةٌ ومعلمةٌ وممرضةٌ ومصلحةٌ إجتماعيةٌ، وغير ذلك من المواقع المختلفة التي حفل بها التاريخ قديماً وحديثاً".[1]

فما الرسالة التي أراد نجيب الكيلاني تبليغها عندما يشخص امرأةً بطلةَ الرواية؟ المرأة في الإسلام ليست ما هو سلعةٌ تُباعُ، أو فريسةٌ تُصْطَادُ، أو طائرة ورقية تحلق في فضاء السماء بِحُرية، منزلتها منزلة الإنسان المحترم الذي يعيش بعزة وكرامة، عفيفَ النفس، عفيفَ القلب، عفيفَ اليد.

فالمرأة المتمثلة في شخصية براعم، تنبأ عن كل هذه الأمور. إنها رمز القوة، والشجاعة، والعفة والحكمة. صارت براعم حديث القرية، ومحطة توقعاتها، بأعمالها الخيرية، من بداية القصة. وتتشارك في مصالح الأمة بحكمتها إن احتاجت إليها. تقوم بإسعافات مالية للفقراء.

وهي تاجرة عاملة: تملك ثلاثين فدانا، على الرغم من أنها نشأت يتيمة وبدون رجل كأخ أو محرم عونا أنها عرجت أدراج الترقي، تجهد في حقولها صباح مساء. "وهي تمر يوميا على حقول العنب، وتتفقد كل شيء بنفسها، وتجمع المعلومات الخاصة بالسقي ومواعيده، وبالمبيدات الحشرية وأنواعها، من مصادر الموثوق بها"[2] "وكان من الطبيعي أن تتزعم ما يمكن أن يسمى (نقابة زراع العنب)، فهي التي تختار المبيدات الحشرية والأسمدة المناسبة، وهي التي تحدد مواعيد الحصاد، وتتفاهم مع كبار التجار للحصول على أعلى

---

[1] مدخل إلى الأدب الإسلامي د. نجيب الكيلاني

[2] ملكة العنب د. نجيب الكيلاني ص :٣٤

سعر، ومن هنا أطلقوا عليها "ملكة العنب" [1]. وان للمرأة المسلمة لا تعوقها حواجز الدين أن تكون بمرتبة عالية، وكان خديجة رضي الله عنها في الإسلام تاجرة شهيرة، وبارزة كبيرة عند الناس وغنية البلاد ووجيهة بين الناس.

وهي محللة المشاكل: مداخلة براعم في أكثر من اثنتين قضية تجعلها موصوفة بهذا المسمى، نتضح لها من مواقف في الرواية – أنها جاءت إلى بيت محمد حسب الله الخطيب وأثناء المقابلة،

" تنهدت ثم قالت

تقول عنا إننا كفرة

أنا ؟

أستغفر الله... أنا لم أقل شيئا من هذا يا بنت الناس

منذ يومين كنت تخطب الجمعة

صحيح

ولم تجد في القرية عصاة إلا أصحاب مزارع العنب

لم أقل ذلك

تعرف طبعا من أكون

ابتسم وقال

يسمونك ملكة العنب

وأنا كذلك فعلا.... الجميع هنا يعرفون قدري.... لقد بدأت العصابات تسطو على الحقول بسببك...يظنون أن لهم حقوقا عندنا...كان يمكنك أن تتفاهم معي قبل الخطبة فقد أستطيع أن أتدبر الأمر..[2]

.....

---

[1] المصدر السابق ص: ٥٢

[2] ملكة العنب ص: ٨

أسرعت خطاها وقصدت محاميا كبيرا تعرفه، وطلبت الإنفراد به،

جئتك في أمر هام....

رهن إشارتك

هل عرفت ما جرى في الربايعة

قرأت عنه في صحف المعارضة اليوم

ما رأيك أنت؟

الحكومة تقول إنها مؤامرة، والصحف المعارضة تنفي ذلك...

اقتربت منه وقالت هامسة

هل تصدقني؟؟

بالتأكيد....

إنهم مظلومون، أنا ليس لي قرابة بأحدهم، لكن قلبي يوجعني من أجلهم، فهم أهل بلدي.....خذ.....ووضعت في يده بضع آلاف من الجنيهات"[1]

.....

والناس يقفون تحية لها، ويزاحمونها بالسلام وعبارات الثناء والمديح، يقول أحد المراجعين "امرأة ولا الف رجل" ويرد آخر "أعوص المشاكل تحلها في دقائق....وبالتليفون... وثالث يردد "أكبر رأس ينحي لها إحتراما"[2].

وهي مغيثة الملهوفين: تقوم براعم بمساعدة كثير من الناس الفقراء في القرية، بحسب ما لها من قدرة، حتى يشعر بها خطيب القرية محمد حسب الله، والصوفي أبو المجد شاهين، لأنهما كانا محبوسين من قبل الحكومة، وهي تذهب طالبة بيت حسب الله لتلتقي بأمه "مسعدة" القروية الخائفة من الحكومة والمتلهفة إلى ولدها المسجون ثم تعزيها وتسليها **وهي جوادة:** ومن عادتها أن تساعد الفقراء في القرية، إنها تقوم بإعطاء المال لأبي المجد

---

[1] ملكة العنب ص: ٤٥

[2] ملكة العنب ص:٩١

شاهين والفقير عوض العوضي بعد الرجوع من السجن وكانت كثيرا ما تقدم الهدايا للجهات الحكومية التي سببت احترامهم لها عند قدومها إليها كما نراها تقوم بتدسيس النقود في أيدي المحامين الموكلين للإدعاء عن المعتقلين كما هي تقوم بتبرع جنيهات للمشتفى الذي انهار في القرية والذي كان مرجع وحيد لفقراء القرية عند مشكلات الصحة ولا تقوم الحكومة بترميمها وإصلاحها حتى شق على عوام القرية أن يلتقي العلاج بوجه صحيح، وإنها تقوم بإنشاء مجلس للإدارة برئاسة أبي المجد سيد شاهين بكونها هي الممولة لها، لمساعدة الملهوفين المصابين بالحروب في العراق "ثم كشف (محمد حسب الله في خطبة في المسجد) لأول مرة الدور البطولي الذي قامت به براعم تفصيليا لدى المحافظ، وفي أمن الدولة والقيام بالكثير من الجهود والتضحيات حتى يفرج عن أبناء الربايعة، ثم مشروع زكاة العنب الذي كونت له لجنة من أفاضل الناس فعم الخير والرخاء البلدة بأسرها بل انها رصدت ميزانية لرعاية أطفال مصطفى السلاموني وزوجه حتى لا يضيعوا أو يودعوا في الملاجئ، وساعدت الطلبة الفقراء بجعل مال شهري حتى يستطيعوا مواصلة تعليمهم.

وهي عفيفة: إن المتطلبات المتوفرة لديها كانت كافية لكي تكون غبية عاهرة، يتمها، وغناها، وتعلقها بالرجال ذات المناصب العالية، وجمالها. ولكن حفظت بيدها زمام نفسها لم يتحكم عليها أحد غيرها.

وهي متدينة: إنها ترفض كل طلبات الزواج، بدت متكافئة لها. وظفرت على من له دين وعلم، وإخلاص في الحب، ورجلا لا طماع في المال ولا خداعا للحب الصادق. إنها تحقق كل من قدم إليها بطلب الزواج الذين كانوا يرون فيها جمالها ومالها ومكانتها لدى الناس ليس غير، كل هذا ظل زائل لا تضمن ببقاءها.

قالت لها امها العليلة "متى تفكرين في مستقبلك يا براعم؟

سأتزوج عندما يأتي الأمر من صاحب الأمر. تقدمت بك السن، ورفضت كل الأيدي التي امتدت إليك وفيهم الموظف والتاجر، وفيهم ضابط نقطة الشرط.....وضابط الشرطة ؟ عادت براعم للضحك..... وافتر ثغرها الجميل عن أسنان ناصعة البياض، وفم شهي،

وقالت : إنه يأخذ الرشوة، من تجار المخدرات ليستر عليهم، وله حق معلوم عند التجار وأصحاب الحاجات، وفي سبيل ذلك لا تسلم تصرفاته من الظلم والفساد..هذا الجسد الفارع المفتول العضلات مآله النار..!."هل من الإنصاف والعدالة أن أترك أختي على هذا الوضع وأتزوج ؟؟[1].... كانت براعم دائما تقدر محمد حسب الله وتحترمه لعلمه وذكائه، وكبريائه، لم تسمع عنه طوال حياتها ما يشين فيه، كل شيء عنده رخيص إلا دينه وكرامته وكل مافي العالم جميل إلا ما خالطه إثم أو ظلم أو فساد، يتدخل في القضايا العامة بقدر ما ينفع الناس...."[2]

وهي متواضعة: لم ترد أكبر المناصب، ولا أن تُعْرَف ذات جاه عظيم، على الرغم من أنهما كانا في متناول اليد بالنسبة إليها. وشهرتها راغمة إليها بسبب "الجهود الذاتية" للمجتمع.

وهي مثقفة: فبراعم متطوعة صادقة تجتهد بما لديها من الخبرة والقدرة أن تكون خادمة المجتمع، بديلة للحكومة الفاسدة التي لا تجلب للشعب إلا البليات والمعانات والإتهامات. إنها تستنكر الظلم والفساد، وتتحيز إلى جانب المضطهدين المساكين.

" ..... أنا أكره العنف والدماء...ولم يعرف عني قط أنني خرجت على هذه المبادئ مهما كان الأمر، فأنا متعلمة وأخاف الله وأستطيع أن أصل إلى هدفي بطرق أبسط كثيرا من ذلك الكلمة الطيبة التفاهم ثم إنني أتسامح مع من يسرقون بعد أن أُلقِّنهم درسا في الأدب وأغدق عليهم...."[3]

فكأن نجيب الكيلاني يعجب، وإن اتفقت في شخصية "براعم" ملكة العنب هذه المحاسن الإنسانية الصادقة كلها، فشتان بين المرأة التي كل همها لا يتجاوز هذه الدنيا الفانية وبين إمرأة مسلمة قائدها هم الدنيا والآخرة على حد سواء. وبتشكيل براعم أنه لم يكن يلتفت إلى الروايات العربية فحسب بل إلى مجتمع مصري حوله بالقياس إلى العالم الإسلامي، الذي

---

[1] ملكة العنب ص: ١٩،٢٠

[2] ملكة العنب ص:١٦٥

[3] ملكة العنب ص: ٢٥

يلزم على الأنثى ما لا يليق بها من حظرحق التعليم، والكتابة، وإلزامها على زواج شخص لا يحبها، وظلمها بحق التقاليد الشعبية، وغيرها. ويصرح أن النساء لا يحتجن إلى الخوف والصمت والانطواء، ولكن لها حق التداخل البناء في المجتمع.

دور المسجد في تثقيف المجتمع المسلم: إن المسجد في الرواية ما هو تدور حوله حياة المسلمين في القرية محيطا بجوانبها الشاملة. والمسجد باعتباره يؤدي دورا كبيرا في تشكيل ثقافة المجتمع المسلم، لأن ارتياد الناس فيه للصلاة ومعاملات الدين يوميا يؤثر بشكل كبير في بناء شخصية المجتمع المسلم ويعطي فرصة لخلق التعاطف الإجتماعي والعلاقة الثابتة الإجتماعية. أما استخدام الكيلاني للمسجد مكانا لأحداث القصة فلفهمه العميق عن مكانة المسجد في قلب المسلم ودوره الريادي له. إن المفهوم الإسلامي الخالص عن المسجد هو أنه مكان العبادة وأن العبادة شاملة جامعة لحياة الإنسان العابد، فجعل الإسلام المسجد رياضا رحبة لنشر العلم وتعلم الوحي وجعله مصدرا للدعوة ومسرحا لإبداء الآراء الهادفة لتعزيز الروابط والوحدة وجمع القلوب كما يوحي به المعنى اللفظي للمسجد الجامع على أن له خطر يجتمع له الناس[1] ومحلا لكل مصلحة شؤون المسلمين.

المسجد في الرواية يظهر في بعدين أساسيين بحسب ما يقوم به من أدوار مختلفة:

١ ﷺالدور التعليمي

٢ ﷺالدور النهضوي

(ا) الإجتماعي (ب) السياسي

التعليم هو المهمة الأولى والمهمة الذي يقوم عليه المسجد، يقوم عالم بإلقاء خطبة أو إجراء تدريس لينبه الناس عن مسائل وفرائض دينية متعلقة بالإنسان المسلم، والتي لا بد أن يعلمها، والمسجد لدى المسلمين من أكبر المدارس وأولها. فعادتهم أن يعتمدوا على عالم القرية أو المنطقة لكي يتلقوا حلولا شرعية في حياتهم. فيرجع العالم، بحسب علمه،

[1] المعجم الوسيط

إلى مراجع فقهية للعلماء الكبار والأئمة الأربعة ويطبقونها في حياتهم اليومية. وثقافة المسلمين في الأمور الشرعية والدينية ترجع فضلها إلى المساجد إلى حد كبير.

أما دور المسجد في التعليم في هذه الرواية يأتي في مواقف كثيرة. يقدم قرية كانت تمارس الأحكام الشرعية وفقا للمذهب الحنفي، لأن محمد حسب الله كان يرجع إلى "الهداية" ليرى حلا لمشكلة الزكاة، كما هو المذهب الرسمي في مصر آنذاك.[1] التدريس أو التعليم مباشرا أو غير مباشر يكون من أولويات العالم في القرية، لأنه هو المسئول عنه في الإسلام. فيقوم محمد حسب الله عالم قرية الربايعة متطوعا ويلقي محاضرات علمية كما هي الحال في خطباته يوم الجمعة وأنه يتطرق أثناء خطبته إلى قضايا مهمة عالقة بحياة المسلمين الدينية، الزكاة مثلا. وهذه الخطبة التعليمية، أصبحت ذات مرة ما يثير جدلا حاميا، وتتابعت بسببها سلسلة الأحداث في الرواية. "اثناء إلقائه لخطبة الجمعة الثانية أثار قضية هامة، استمع إليها الناس، وهم ما بين مصدق ومكذب. وكان من ضمن ما قال "لقد تحولت حقول قريتنا إلى مزارع للعنب، وأهملوا زراعة الحبوب، وهم لا يخرجون زكاة هذه الفاكهة المرتفعة الثمن، والفدان في المتوسط ينتج من العنب ما يساوي خمسة آلاف أو ستة آلاف جنيه. والزكاة هنا نصف العشر لأنها تسقى بالآلة، أي حوالى خمسمائة إلى ستمائة جنيه ولو فعل زراع العنب ذلك لقل عدد الفقراء في قريتنا إلى حد كبير.. فاتقوا الله، وانفقوا من مال الله الذي آتاكم وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه. أليس هذا القول من القرآن الكريم...؟" وما أن انتهت الصلاة، حتى ساد اللغط والجدل"[2]. "في اليوم الجمعة التإلى احتشد الناس في المسجد فالمعركة ما زالت محتدمة والشيخ محمد حسب الله سوف يلقي الخطبة فهل سيتراجع عن أقواله كما يزعم البعض؟ هل يحاول أن يطرح رأيين مختلفين هل سيطر على قوله السابق؟ وكيف يفسر الأحداث التي جرت وتجري اليوم من

---

[1] تقرير الشرق الأوسط : الشيعة في مصر متهمون رسميا ومعزولون شعبيا، ١٢/ ٠٦/ ٢٠١٢

[2] ملكة العنب ص: ٥

جراء فتواه التي قدمت لبعض السفهاء مبررا للإنحراف ؟ وفي الوقت المحدد أنهى محمد صلاة الركعتين قبل الخطبة ثم وقف وخطا صوب المنبر...."[1]

٢ – الدور النهضوي: الاجتماعي:

هذا الدور للمسجد، يأتي من ناحية كونه مسرحا لإيجاد بواعث "النهضة" في المجتمع، بمنظور اجتماعي. وهذا المنظور يحث الإنسان أن يكون منفتحا إلى المجتمع، وقضاياه. ويلفت إلى خطورة الإحسان والتضامن. على الرغم من كون الإنسان أنانيا و منطويا إلى ذاتيته إلا أنه يحفزه، ويخرجه من نفسيته، فينهض قلبه إلى مبادئ سامية، وأخلاق عالية يفهم الإنسان بها غيره، ومشاعر غيره، ويتدخل في مصلحتها بقدر تأثير المبادئ والأخلاق فيه. والمساجد لدى المسلمين أخصب الأماكن لفعل الخير والنشاط الإجتماعي الصالح.
وانتهازا لهذا الدور النهضوي الإجتماعي للمسجد، استخدمه الروائي في التعبير عن الوحدة، والعمل لصالح أفراد المجتمع، والتفاهم بين الناس بوسيلة لسان شخصية محمد حسب الله خطيب المسجد.

"وقف الشيخ محمد حسب الله في المسجد بعد صلاة الجمعة ورجا الحاضرين أن ينتظروا بضع دقائق ويستمعوا له.. وتحدث الشيخ طويلا ولم يختصر كما وعد في البداية عن الأحاديث النبوية التي وردت عن الإحسان وجزائه في الآخرة وعن حب الناس والتفاني في خدمتهم إرضاءً لله وعن أفعال الخير الكثيرة التي تصلح من حياة الناس وشأنهم وخدماتهم العامة وعن ثواب من يدافع المظلومين وينصف المقهورين ويجبر القلوب الكسيرة وينشر الفضائل بين الناس" [2]

---

[1] ملكة العنب ص:٢٢

[2] المصدر السابق ص: ١٤٠

الدور النهضوي السياسي:

إن التجارب الثقافية والفكرية التي تجري في المسجد توفر بشكل واسع مستلزمات التقريب والتلاقح في الرؤى والفهم للأمور السياسية والتحديات ومشاكل المسلمين عامة وتوفير أرضية للإتفاق على الحلول ومواجهة مشاكل الأمة. إن كثيرا من القضايا السياسية التي حدثت في قرية الربايعة كان لها تأثير كبير في اجتماع الناس في المسجد وتبادل الآراء معهم، لأن المسجد في الرواية حافل بالحوارات والمناقشات المتعلقة بأمور الأحداث فيها، على أنه هو مجمع الناس ذوي آراء مضادة أو موافقة فيختبرونها لكي يتوصلوا إلى رأي عام صالح للجميع. "أيها الناس إذا كانت الحكومة قد أممت المنابر فإن ساحات المساجد لم تزل حرة ومصاطب الشوارع يجلس عليها الناس ويتحدثون وماذا تقول عن حياتنا التي امتلات بالمحاذير وحكمتها الطوارئ؟ إننا لسنا ضد النظام ولكننا مع الحق ونحن لا ننتهك الأمن ولكنا نمارس حقنا بالحرية ولا نقول إلا ما جاء به ديننا... "[1] " كل من عليها فان ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام... ترددت تلك الكلمات الطاهرة المؤثرة من مكبر للصوت في أجواء قرية الربايعة، فارهف الناس أسماعهم ليعرفوا إسم من مات...."[2]

"احتشد الناس في المسجد وصلوا الظهر ثم وقف النائب في صحن المسجد يتحدث عن الأمن الأجتماعي والحوار الديموقراطي واحترام كرامة المواطن وضرورة الإنحياز إلى الشرعية وحق كل إنسان في أن يرفع شكواه....."[3]، وإن الدين في الرواية مواز، لا تعارض بينهما، حين يقول "وصلى الناس في المسجد صلاة الشكر لله لنجاة أبناءها من بطش السلطة، ولأن الله بارك في محصول العنب"[4]، وهذه الفقرات المذكورة تدل على ما في الرواية من الدور الكبير للمسجد، وهذا ما يريده نجيب الكيلاني من كون المسجد منبرا لتوعية الناس على سياستهم الجيدة، والطيبة.

---

[1] ملكة العنب ص ٢٣

[2] المصدر السابق ص ٣٨

[3] المصدر السابق ص ٤٩

[4] المصدر السابق ص ١٢٠

رواية ملكة العنب دراسة نقدية

ملكة العنب، بكونها رواية في آخر الروايات لنجيب الكيلاني، تعد من أهم رواياته شكلا ومضمونا. أما الدراسة النقدية في كتاباته، من حيث إنه أديب إسلامي ورائده، ويرفض جميع التيارات الأدبية الوافدة ولا يصح تقييمها على أساس النظريات الفنية، الغربية أو غير الإسلامية. إن النقد الإسلامي المتبلور، يسير في عكس إتجاه النقد الغربي أو غير الإسلامي. أما المعايير الفنية السائدة من "التقريرية" أو "هيمنة الكاتب على الشخصيات ومراقبته لهم"، أو "الإلتزام" أو "الدعوة" ترى في كثير من روايات نجيب الكيلاني، فلا يجوز للكاتب الفني أن يعين للشخصيات مسارهم بل يطلقه على عنانهم. إن روايته ملكة العنب دعوة، وتشخيص بحسب فكرة خاصة، تقرر بعض القيم الحسنة وتعيب بعض القيم الشريرة، من حيث يوجد "سيطرة على النص" بشكل واضح، ويمكن التلخيص قبل إتمام القراءة ماذا يكون دور كل من الشخصيات فيها. ولكن الأسس الفنية لنقد القصة قد تبلورت في مسارح المذاهب الأدبية التى هي مرفوضة برمتها، عند الكتاب الإسلاميين المعاصرين، حيث يرون أن مغزى المشكلة في تقييم الفن هو اتباع المذاهب الأدبية الغربية. لأنها ترى أن تسخير الفن لخدمة الفكرى العقدى، يقتل روح الفن في ذلك العمل، ويخرجه من الفن الجميل إلى نطاق العملى الوعظي المباشر، أو العمل التوجيهي أو التحذيري الممل.

ويحتاج إلى إعادة فكر، في بعض الشخصيات الإسلامية، يقدمها في رواياته على أنها إسلامية، طبقا للمرجعية الإسلامية. لا بد أن يكون الكاتب الإسلامي، غيورا على مبادئ الإسلام الثابتة، ولا يخالفه، أن أي عمل باسم الإسلام يكون ما هو ممثله ومبادئه، فهو أسرع ما يرسخ في القلب من غيره. أن الشخصية في ملكة العنب كأنها رئيسية وامرأة، تلزم أن تكون محدودة في إطار الإسلام المشروع. وكثيرا من الأحيان، وعلى حساب حرية التصرف، يوردها بمحل غير لائق بها.

تظهر براعم، في الرواية، ذات حرية كاملة في التصرف، تناقض بعض القيم الإسلامية الصحيحة، فليس من العيب أبدا، في الأدب الإسلامي أن ينزل الناس في منازلهم، موفرا لهم جميع الحرية ما عدا الذي منعه الإسلام. وبعض العادات فيها، كمصافحتها مع الرجل الأجنبي، التي نستطيع أن نراها في كثير من تصرفاتها، وكالخلوة مع الرجل الأجنبي، وتصرفاتها في الليل بدون محرم، الوقت الذي يخشى الفتنة فيه، تنبئ عما يخالف القيم الإسلامية. يقول "عادت براعم إلى القرية قبيل منتصف الليل، كانت تجلس في مقعد سيارتها الخلفى صامتة، لم ترد على تساؤلات السائق "هل تريدين شراء شيء من المدينة ؟ هل تودين شرب بيبسي كولا مثلجة ؟ هل تشعرين بشيء ؟ لم يستطع أن يجرها الكلام بأي شكل من الأشكال. الطريق الضيق المرصوف يمتد تحت أصداف الظلام الحالك والأشجار على الجانبين مثقلة بتيجانها المعتمة، وأبنية القرى في الطريق تبدو وكأنها هي الأخرى نائمة كالبهائم الرابضة أمامها..." [1]

وهي في الرواية، تخالف الرشوة، وإعطاء النقود غير شرعي. ولكن كانت معتادة على إعطاء الجنيهات، للأفراد السلطات، وكانوا يحترمونها إلى حد أن يخيل القارئ أن هذا الإعطاء هو السبب في جلب الإحترام، والنفوذ بين أصحاب السلطة والرجال، لأن الناس عبيد المال.

"وفي اليوم التالى قصدت ديوان المحافظة وكبار الموظفين في مكتب المحافظ يعرفونها جيدا، فهي تغدق عليهم المال، وتبعث إليهم كل عام أقفاص العنب كهدية سنوية، (كل سنة وأنت طيبة يا ست الكل وربنا يجعله عامر ونحن في خدمتك دائما) وهي عندهم "صديقة قديمة" ومتبرعة لهم، وللمحافظة. [2]

---

[1] ملكة العنب ص: ٩٣

[2] المصدر السابق ص: ٨٧

"تحت الحساب واختر ما شئت من إخوانك المحامين ولا بد أن تبذلوا أقصى جهودكم للإفراج عنهم وخاصة الشيخ محمد حسب الله...[١].

وإن بعضَ الحوارات في أول الرواية التي تقوم بها "براعم" مع خطيب المسجد، وأستاذ القرية محمد حسب الله، توحى عن "إثبات المكانة، والقدر"أكثر مما هو انطباع جيد، في القلب القارئ، من كونها متواضعة، متفاهمة.

"سأمنعك من صعود المنبر مرة أخرى..[٢].

"وأنا كذلك فعلا، الجميع هنا يعرفون قدري، لقد بدأت العصابات تسطو على الحقول بسببك، يظنون أن لهم حقوقا عندنا، كان يمكنك أن تتفاهم معي قبل الخطبة فقد أستطيع أن أتدبر..."[٣]. هذه السمات التى ذكرناها في الرواية، ليست ما يحيد الرواية عن دائرة "الأدب الإسلامي" المطلوب، لأن المضمون العام هو إسلامي، إلا أنه وقع بعض الأخطاء التي يمكن تصحيحها، أو يكون له رأي خاص بهذا الصدد.

---

[١] المصدر السابق ص: ٤٥

[٢] المصدر السابق ص: ٩

[٣] ملكة العنب ص: ٨

المبحث الخامس

القضايا السياسية في رواية ملكة العنب

ولإيضاح تعقيدات الحالة الإجتماعية يجعل قرية الربايعة ناشطة في السياسة، ليتمكن الإستنتاج أن قضيتها ليست قضية اجتماعية محضة بل إجتماعية متقاطعة بالأحداث السياسية، وهمومها، وحالات تدبيرها، لأن اجتماعية الناس ترجع إلى حد كبير إلى اقتصاديتهم، وهي ترجع إلى قوانين الحكومة، ومواقفها، بحيث يتخيل للناظر من وجهة المنظور السياسي أن قضية الربايعة هي قضية سياسية بدرجة كبيرة كما تراها شخصية "سعاد الدباج" النائبة "باختصار قضية الربايعة قضية سياسية بالدرجة الأولى...."[1]. ونرى كذلك ما هو الموقف الذي يقوم به نجيب الكيلاني من الحكومة المصرية.

الحكومة المصرية والمجتمع المصري

نبحث هنا عن الحكومة المصرية التي تقوم باتخاذ إجراءات عميقة الأثر في المجتمع المصري من جهة ورد فعل المجتمع تجاه هذه الحكومة من جهة أخرى لأن المجتمع في الرواية يظهر معارضا للحكومة وناقدا لها، ومنكرا لإجراءاتها ومتنافرا لموافقها. ويرى أنها تعمل لأغراض شخصية بحتة تدميرية لكل ما كان في المجتمع من قيم ومحاسن. يرجو من الحكومة شيئا إلا هلاكه وقمعه، فيخلق من هذا الوعي السياسي بدلا ثابتا للتنمية والإزدهار. فهو مشغول في العمل المتمثل في الزراعة، والإحتجاج المتمثل في الثورة.

فترة أحداث الرواية تقع في مدة التى لم تزل آثار سياسات العقد الأخير طرية وحدثت في المجال السياسي المصري تحولات عميقة ذات تأثير في المجتمع المصري، فهي أيام عهد حسني مبارك الذي خلف سابقه أنور السادات، والمار على خطه وسيله، فكون تلك الفترة

---

[1] المصدر السابق ص: ٩٢

عقيب السلطة الساداتية التي قامت بمغامرات سياسية في منتصف السبعينات. وفي عام ١٩٧٤ من خلال سياساته إتخذ قرار الإنفتاح الإقتصادي، الذي أعاد النظام الرأسمالى للإقتصاد المصري، الذي تسبب في ضعف القطاع العام، والزراعة، ما أدى إلى تفاقم القروض الخارجية وكثرة البطالة وخاصة في القرى التى كانت تعتمد للعمل كثيرا على الزراعة والأجر المحصول منها. كما قام عام ١٩٧٨-١٩٧٩ بالتوقيع على إطار السلام بين مصر وإسرائيل معاهدة – كامب ديفيد- بحضور الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ورئيس العسكري. وكان ممن – كما هو سابقوه- لم يكن مسامحا على الجماعات الإسلامية مثل إخوان المسلمين ويكون لها دائما بالمرصاد ليتخذ ذلك الموقف نفسه من هو يخلفه. وفي أيام حرب الخليجية الأولى (حرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨٣-١٩٨٨)، قامت مصر بمساعدات سلاحية ومالية للعراق باتفاقية مع صدام حسين، وكان كثير من العمال يعملون هناك، وقت الحرب وبعده، وقد تشجعت الحكومة بهجرة عمال مصر إلى الدول العربية مثل الكويت ذات البترول محاولة لتحسين العلاقة الثنائية بين البلدان على سياسياته الاقتصادية. وقد أدت هذه السياسية المصرية التى تتفق مع إسرائيل وأمريكا التي تحتل أماكن المسلمين مثل فلسطين، وعلاقتها بهما الوثيقة[١] والعراق التي كانت في سبيل الحرب مع إيران والكويت[٢] والإنفتاح الإقتصادي للرأسمالة الذي أدى إلى استنكارواستنفار في مجموعة من الناس لينتهي الأمر إلى اغتياله عام ١٩٨١، وإثر اغتياله أعلنت الحكومة حالة الطوارئ التي تم رفعها قبيل ثورة يناير ٢٠١١، لخلع حسني مبارك[٣]. وكان

---

[١] Egypt and Israel, Past, Present and Future,The Israel Project, Jerusalem Office, وانظر ايضا كتاب الحرب العراقية الايرانية ١٩٨٠- ١٩٨٨م د./ المشير عبد الحليم ابوعزالة، ١٩٩٣- ٩٤

[٢] انظر كتاب الدور المصري والعربي في حرب تحرير الكويت، الجزء الأول، لواء د./ كمال احمد عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين ٢٠٨

[٣] ب ب سي، عربي ٣١ مايو ٢٠١٢

الكيلاني عندما يصور الحالات يتطلع إلى الجانب الضعفي للحكومة المصرية آنذاك، فتتخلل الرواية في شكل التهكم و التنافر ما تشير إلى القمع السياسي والفساد الاجتماعي والثورات المعادية للحكومة، إلى جانب معالجته قضايا مثل كيف تكون التنمية، ودور الرأسمالية المصرية والعمالة المصرية في الخارج، وحرب الخليج وإيران، ودور أجهزة الحكم المحلي في واقعهم، والوعي السياسي للناس.

الحكومة في الرواية تسير بما لا يشتهي به المجتمع، خاضعة لأطماع الأجنبة المستغلة، فاسدة إلى حد أن تظلم الناس بأداة السياسة لتنبئ "لقد جثم على صدورنا إحتلال جديد خبيث بعد أن قضينا القرون للتخلص من الإحتلال القديم[1] وإن سياسات الحكومة الإقتصادية قد نتجت كثيرا من المشكلات الإجتماعية مثل البطالة وتدهور الزراعة في الريف وزيادة نسبة الهجرة، ما أدى إلى تكثيف رأس المال الأجنبي.

الزراعة والثورة من العنصرين المهمين في الرواية يحاول الراوي تحليلهما، إن الزراعة هي كانت من أهم مقومات مصر الإقتصادية، من حيث العمالة والإنتاج، وكانت الأرياف أكثر المحال زراعة، إلا أن الحرب العربية أدت إلى أزمة اقتصادية كبيرة، بالإنفتاح الإقتصادي، الذي فتح أمام" الرأس المالية" والقطاعات الأجنبية مجالا أوسع. وهذه الخطوات الإقتصادية قد تأثرت سلبا على كثير من القطاعات، الزراعية والإنتاجية المحلية لكي تتأثر على حالة المجتمع سلبا.

يقول الباحث إبراهيم لطفي عوض عن الآثار السلبية للإنفتاح الإقتصادي على المجتمع المصري "يلاحظ أنه في الوقت الذي ارتفعت فيه أسعار مستلزمات الإنتاج بسبب التضخم في السوق العالمية وحدوث انخفاض في قيمة العملة المحلية وارتفاع مستويات الأجور حاولت الحكومة كبح جماح الزيادة في الأسعار المحلية عن طريق وضع القيود على أسعار بيع المنتجات القطاع العام أو تجميدها وهو الأمر الذي ترتبت عليه زيادة الشركات العامة الخاسرة وانخفاض معدلات العائد في كثير منها وهو الأمر الذي يؤثر سلبيا على

---

[1] ملكة العنب ص ١٥١

الطلب المحتمل على العمالة في مثل هذه الشركات إن لم يؤد كما حدث بالفعل إلى محاولة الحكومة بالمستقبل التخلص من هذه الشركات الخاسرة، وما يؤدي إليه ذلك من التأثير السلبي على معدلات التوظف، وفيما يتعلق بسياسة تسعير المنتجات الزراعية كما سبق وأشرنا إليها يعتقد البعض أن شراء الحكومة للمنتجات الزراعية من المزارعين بأسعار تقل عن سعر السوق يعتبر بمثابة ضريبية انتاج انتقل عبئها على أجور العاملين بقطاع الزراعة بالشكل الذي أدى إلى زيادة معدلات الهجرة (بسبب انخفاض معدلات الأجور بقطاع الزراعة) سواء إلى المدن وما أدى إليه ذلك من ارتفاع معدلات البطالة بالحضر عن مثيلتها في الريف أو إلى الخارج وفي كلا الحالتين كانت هجرة العمالة الزراعية سببا مباشرا في استخدام المكينة على نطاق واسع في قطاع الزراعة بشكل أدى إلى تحويل هؤلاء المهاجرين عند عودتهم إلى عاطلين بسبب إحلال المكينة محل العنصر البشري في معظم العمليات الزراعية"[١]

والرواية تتمثل بشكل أصدق هذه الحالات السياسية والإجتماعية، من أن المشاعر التي تسود قلوب الناس كانت مضادة، ومعاكسة لمواقف الحكومة. وقد تسبب كل هذا في ازدياد بطالة الشبان الخريجين المتخصصين القادرين على العمل، لأن القطاعات العامة كانت في الخسارة، ولا ينبغي أن تحرص القطاعات الخاصة الأجنبية في المواطنين. واستوجبت المعارضة أن تقوم بالمظاهرات والإحتجاجات واندفعوا إلى الشوارع، فقامت الحكومة بممارسات عنيفة وقمع الثوار واعتقالهم، على حساب حالة الطوارئ السارية. المطالبة في مصر ذلك الحين تشكلت في مطالبة الحرية: الحرية السياسية والحرية الإقتصادية، التي تتحرر من الإستغلال المصري والأجنبي، ما يؤدي إلى التصادم السافر مع الحكومة.

والمجتمع في الرواية من أولها إلى آخرها يحتدم مع الحكومة، ويندم على من أصبح راعيها حراميها. وكان يتحين فرصة لإظهار غضبهم ضد الحكومة، فيأتي خبر موت رجل من

---

[١] ظاهرة الركود التضخمي في الاقتصاد المصري، دراسة تحليلية، ص: ١٠١، اعداد ابراهيم لطفي عوض، قسم الاقتصاد، كلية التجارة، جامعة الزقاقيق

العراق. فاندفع الناس عن بكرة أبيهم إلى الشارع محتجين. "كان في القرية أكثر من ألف خريج عاطلين عن العمل بعد نوالهم الشهادات المتوسطة والجامعية ابتداء من عام ١٩٨٢، وكانوا ساخطين على الحياة وما فيها، ولم يكن ذووهم بأقل منهم سخطا، ولهذا كانوا ينتهزون أية فرصة للتعبير عن غضبهم ورفضهم فقد أصبحت الحياة لا معنى لها بالنسبة لهم، أنهم يرون آمالهم تضمر عاما بعد عام..... ولا أملا جديدا حتى الآن ولهذا اختلطت هتافاتهم وتنوعت"[١]

فيطرح قضية الفساد السياسي في الحكومة، ليأتي الجانب المعارض في نزاهة موقفه، وقيامه للعدل والخير، وليثبت أن سياسة الحكومة أردأ ما يوجد من الأدوات إن فسدت، إلى حيث فقدت ثقة الناس فيها وفي السطات الحكومية. وهدرت حقوق الناس التي سمح بها نظام ديموقراطي للدفاع عن حقوقهم. وعندما تناول هذا الجانب السياسي كل عبارة فيه توحي ما يضمر"الحقد والغضب" تجاه الحكومة. وإلى جانب البطالة يعالج نجيب الكيلاني سياسة الرشوة وسوء التعامل (انتهاك حقوق الإنسان، اعتقالات وتعذيب، قمع المعارضة، سوء الأمن).

والحكومة مسلحة بجميع أدوات القمع والهيمنة، الشرطة يد الحكومة في تهيئة الحالة المخوفة ليهدد بها الخارج عن العواقب، وافتراء الأكاذيب على البريئين لكي يعذبهم بحسب المؤامرة المدبرة السابقة، واعداد رجال منحازين للحكومة لشهادة الزور واتهام الجرائم عليهم، لما تمنح لهم من المكافآت، وفي الرواية أن محمد حسب الله، وأبي المجد شاهين يسجنان بشهادة زور الراعي كشل الحشاش، المنافق في جميع أعماله والمادح بسياسة الحكومة. ويشعران أنواع التعذيب المتفننة. والسجن للحكومة أداة الإسكات لكل صوت معارض، وعدم السماح له للخروج منه، وإلقاءه فيه مدة كثيرة بدون جريمة ثابتة.

والتليفزيون التي تمنع الناس من حرية التعامل والتعبير، الأداة القوية للحكومة من بث الأخبار الملفقة وتسجيل المظاهرات والإحتجات لكي تقوم باعتقال "المجرمين بفضلها".

---

[١] ملكة العنب ص ٣٩

وفي ظلال هذه الفوضوية السياسية تتحرر السلطات الحكومية من قيودها، وبدون مراقب. إنه يتناول الرشوة كأنها أوضح دليل على فساد الحكومة، بحيث ترهلت السلطات الحكومية، وأصبحت مجمعة على هذا الفساد إلى أن أفضى بالامر إلى أن لا مناص للفقير أو العوام من أن يدس شيئا من النقود في أيدي الموظفين ليتحققوا أمورهم القانونية، فيكون غير المستحق ممنوحا والمستحق محروما. كما هو يقول "ودعا أحمد علام رئيس المجلس المحلي إلى جمع التبرعات لبناء المستشفى بالجهود الذاتية، وسخر الناس من هذه الدعوة لأنهم يعلمون جيدا أن أي مبلغ يجمع سوف يسرق نصفه على الأقل"[١].

فيعرف كل الناس عن وجود الفساد ولا يمكن منعه بل كشفه عن نقابه فيكون قذى في عين الحكومة، فتظهر الحكومة في الرواية استبدادية ظالمة. أما المعارضة في الرواية فهي المعارضة الإسلامية وأصحابها، الذين يدعون إلى الحل الإسلامي لمشكلات الناس والمجتمع، الحكومة التى تخشى أية نهضة إسلامية فتقطعها من شطئها. ونجيب الكيلاني يظهر هذه الحقيقة في كثير من المواقف.

هناك بعض التعبيرات في الرواية تشير إلى وجدانية شخصيات الرواية في الحالة السياسية السائدة على سبيل المثال لا الحصر،

"أيها الناس إذا كانت الحكومة قد أممت المنابر فإن ساحات المساجد لم تزل حرة ومصاطب الشوارع يجلس عليها الناس ويتحدثون وماذا تقول عن حياتنا التى امتلأت بالمحاذير، وحكمتها الطوارئ ؟ ؟ إننا لسنا ضد النظام، ولكننا مع الحق، ونحن لاننتهك الأمن ولكن نمارس حقنا في الحرية ولانقول إلا ما جاء به ديننا "[٢]

"أتدري يا بني ما الذي أفسد هذه القرية التي كانت آمنة ؟؟ ماذا ؟؟ عد على أصابعك... التلفزيون.. والسفر للخارج وفساد الإدارة والبضائع المستوردة وانهيار التعليم والبعد عن شرع الله والرشوة تلك هي الأوبئة السبعة[٣]

---

[١] ملكة العنب ص ١٢١

[٢] المصدر السابق ص٢٣

[٣] ملكة العنب ص١٧

"الواقع أن كارثة زيادة النسل تهدد الخطة الخمسية بالفشل.....الرئيس معذور يا رجال، وإلا قطعت أميركا عنا المعونات...."[١]

" قانون الطوارئ يبيح كل شيء حتى القتل" [٢]

"الموت للخونة يسقط صدام تسقط إسرائيل وأمريكا"[٣]

"هذا زمن التمثيل والتمثيلات لقد تربع التليفزيون على العرش.....الآن أصبحنا نصنع الوقائع ونشكلها حسب هوانا....ليس لدينا واقعية نحن نعيش أضغاث أحلام شريرة نؤلف الأدوار ونركبها على الأشخاص آه يادنيا السلبيات والأكاذيب.."[٤]

"أليس ما يجري يعتبر من علامات الساعة ؟ إنها فتنة أيها الرجال..... لقد انشق العالم العربي إلى فرق وطوائف وتبددت وحدة الأمة الإسلامية.... والظلم له أنصار، والحق له أنصار....."[٥]

"يروي عوض العوضي فيما بعد عن ذلك الموقف الصعب فيقول وجسده يرتجف فتحوا على أبواب جهنم كرابيج عصي صفعات.[٦].

"لأنه أصبح أمريكيا والأمريكي رجل مصالح ولا يعرف العواطف ولا صلة الرحم ولهذا رفعوه إلى المركز العالى" [٧]

"أن يقدم حل الإسلامي.....وهذا أيها الناس هو الإسلام الحقيقي، فإذا أردنا أن نحقق مبادئ الإسلام في الدولة فلنبدأ بأنفسنا وأسرنا، ثم إلى قرانا الصغيرة ولا ننتظر انقلابا مفاجئا يطبق شريعة الله فالإسلام رجال قبل أن يكون سلاحا ومعارك دامية "[١]

---

[١] المصدر السابق ص٣٠

[٢] المصدر السابق ص٣٣

[٣] المصدر السابق ص٣٩

[٤] المصدر السابق ص٤٧

[٥] المصدر السابق ص١٥١

[٦] المصدر السابق ص٥٦

[٧] المصدر السابق ص ١٢٢

لقد قمنا، بعلاج رواية من روايات الكيلاني الذي تناولت قضية من قضايا المجتمع الإسلامي، والسياسي الحاضر، الذي كان يعاصره، ويعايشه، بحيث يجعله يستطيع تقديمه بدقة، وإحاطة. لأنه شاهد عيان وذو تجارب مباشرة. وإنه كان لم يقتصر في كتابته، ما هو في "البيئة المصرية" وهذه الرواية هو الجانب المصري لروايات نجيب الكيلاني الذي قد تم الدراسة فيه في رواية "ملكة العنب" الذي أضعفته السلطات الحكومية العسكرية، أكثر من خمسة عقود، المتمثلة في ثلاثة رؤساء مصرية من جمال عبد الناصر، وأنور السادات وحسني مبارك. والتي قام بالحظر، على كل جهات معارضة مصرية، بعد الثورة ١٩٥٢. ومنعت حق التصرف في السياسية المصرية مخافة من التسلط على الإستيلاء. إنه لم يقتصر بهذا الجانب بل قد أطلق عنان قدرته الفنية، وكان يستشرف على، أو يحرص للإستشراف على كل ربوع العالم، من حيث المنظور الخاص له، بقضيات ذلك القطر، واستشرف إلى الواقع الإسلامي الحاضر، وكتب روايات عدة، عما "في البلدان الأخرى"، وتاريخها، وحرصا على معرفة طريقة المعالجة، وميلانه في انتقاءه المضامين في هذا المجال تم اختيار روايته "الظل الأسود" للدراسة الذي يعد من الروايات ذات المضمون التاريخي – السياسي.

---

[١] المصدر السابق ص ١٤١

الباب الثالث

القضايا السياسية والإجتماعية في رواية الظل الأسود

المبحث الأول : الرواية العربية الحديثة والسياسية

المبحث الثاني : نجيب الكيلاني والرواية السياسية

المبحث الثالث : رواية "الظل الأسود" دراسة تحليلية ونقدية

المبحث الأول

الرواية العربية الحديثة والسياسة

قد أصبحت السياسة متناغمة مع سلوكنا وعاداتنا اليومية، وهي واقع من وقائع الوجود الإنساني التي لا يمكن لأحد التخلي عنها، وكل فرد من الأفراد يجد نفسه مشتركا بطريقة ما في شكل من أشكال النظم السياسية. وقد تلاحمت مع الشعب تلاحما عميقا، حيث أصبح هو الفيصل في مصير السياسة الحديثة، مكسرا حواجز "أرسطوقراطية السياسة" أو"ملكية الأرض الموروثة". فإن الإنسان لا يستطيع التغافل عما يتولد من النتائج بسبب السياسة مباشرا أو غير مباشر. إن الأحوال الإجتماعية في أغلب الأحيان ماهو معاكسات القوانين السياسية، أو تأخذ النظم السياسية أوضاع المجتمع ماهو سبيل إلى إيجاد الأحكام وإتخاذ المواقف. وإن الفن عامة والأدب خاصة كنظامين حيويين لا بد أن يكون لهما موقف سياسي كما كان لهما موقف إجتماعي. إن الرواية هي من أكبر الأدوات الفنية لتستطيع لها تفسير وقائع سياسية، إجتماعية، فردية للزمان والمكان بوضوح وتبصرة ما لا يستطيع به المؤرخ تماما، وذلك بإمكانه لتقييم الأحداث والتنبؤ عما يترتب بها من الآثار.

إن الروايات العالمية، تحدثت بشكل كبير عن المساواة والتحرر وحقوق الإنسان التي لها أهميتها السياسية، بينما في العالم العربي وجدت سلطات تقهر، وتدقق "التعبيرات السياسية" التي يتم بسببها القبض على صاحبها، ويتعرض لمفاجعات شخصية. وهذه الحالة لم تختلف كثيرا عن وضع الأدب العربي القديم.

لما كانت حالة الأدب العربي في تناول "المواضيع السياسية" رتيبة لم تتعد التمدح، أو الوسيلة لإكتساب المال عند الملك أو الحاكم. فاحتاج الأديب إلى تعرضه للهجاء أو التصحيح أن يلجأ إلى رموز أو إستعراض بحيث يكون أبعد ما ينطق عن "الأمور السياسية" بشكل مباشر أو بطريقة جدية. وقد تسبب الخوف عن ذاتية الأديب وانعدام

الرصيف الهادف لإصلاح السياسة في اختفاء "النزعة الثورية للأدب" إلا القليل في الأدب العربي القديم.

وقد شهد العالم العربي لتحولات عميقة وواسعة، بعد منتصف القرن الثامن عشر، وانهيار المملكة العثمانية بالتحديد. وأصبح الإستعمار شعار القوة. ولم يكن في وسع العالم العربي سوى أن يكون ممزقا، منهوك القوى، ومشتت المشاعر، وقد تفاقم حجم الهوة بين المستعمِر والمستعمَر، واختلفت طموحتهما، وجعلا كيانين متباينين. والأدب العربي الحديث كان يتطور في هذه الحالة المضطربة، التي اضطر الكاتب إلى البحث عن "الهوية"(Identity) و"المواطنة"(Citizenship) و"الحقوق(Rights). فلذلك، لم يكن للأدب العربي الحديث بد من أن يكون له فيض سياسي، لجميع الفنون العربية، لأن الواقع الإجتماعي العربي الراهن كانت له صلة وثيقة بالمواقف السياسية، بل مزيج بها، حتى لا يمكن فصل السياسة عن الحالة الإجتماعية بل هما متشابكتان بينهما.

يقول الأستاذ الدكتور ياسين الأيوبي في كتابه مذاهب الأدب، معالم وانعكاسات "يعتبر المنطق القومي الفكري من أكثر السمات الأدبية تجددا وواقعية في الشعر العربي المعاصر، وكانت نفوس الشعراء المعاصرين أقوى من أن تلين وترضى بالواقع السياسي المجزأ والمحتل من قبل المستعمرين. ومن هنا المحطة الأولى للنضال الأدبي الذي تطور مع الأيام ليصبح سمة بارزة في الأدب العربي الحديث، هي سمة الإلتزام. "وإن لكل أديب من أدباء العرب الحديث كانت لهم تجربات سياسية خاصة، إما بالنضال وإما بالمنفى".[١]

الوعي عن العبودية الفكرية والجسمية جعله يرفض كل "استفزازات" سياسية داخلية أو خارجية. فالكاتب الروائي العربي في سياسيته أصبح مناضلا، وقائما بالتلويح والمصارحة، والسخرية من السلطات الحاكمة واكتشاف معاييبها وتجارب الناس في ظلها، وقد تناولت عديدا من الروايات العربية في العالم العربي ما يتحدث عن السياسة التى كانت سائدة هناك. فاقتراب الأدب العربي من السياسة أكبر من ابتعاده منها، وإن المفاهيم ذات أهمية

[١] النقد الأدبي، معالم وانعكاسات للدكتور ياسين الأيوبي ص: ٢٦٨

سياسية التي يستطيع الباحث أن يجدها في الروايات العربية الحديثة كثيرة مثل "الوطنية" و"القومية" و"العروبة" و"الإسلامية".

ويقول الأستاذ عطية "وقد لعبت الرواية العربية نفس الدور الذي لعبته الرواية الروسية في مجتمع القيصرية بتعبيرها وتأثيرها في حياتنا الفكرية والسياسية والإجتماعية وليس ببعيد ما هو معروف عن تأثير رواية توفيق الحكيم الشهيرة "عودة الروح في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وما أسهمت به في تكوين فكر ووجدان قائدها جمال عبد الناصر، ونظرا لما عاناه وطننا العربي في مجمله من افتقاد الحريات السياسية والعلمية والشخصية على درجات متفاوتة فقد ظهرت الإتجاهات السياسية من خلال الفن الروائي، وعبرت الرواية العربية عن القضايا والطموحات السياسية التي تصطرع في الضمير العربي ولم يتمكن من تناولها بحرية كاملة في الكتابات السياسية المباشرة، وقد تناولت الرواية العربية العديد من القضايا السياسية مثل العدالة الإجتماعية وحرب اكتوبر والحرب اللبنانية غير أن أهم القضايا السياسية التي شغلت أمتنا العربية ولم تزل تشغلنا هي أزمة الحرية في وطننا العربي.[١]

ولكن السياسة في الدول العربية ما برحت شبه ديموقراطية، وشبه عادلة في تصرفاتها مع المجتمع، التى تسببت في تتابع الثورات، ومحاولة الهيمنة على السلطة والبقاء فيها بأي ثمن، فتحول مسير الروايات العربية إلى اكتشاف ما في الداخل (داخل وطنه) من الضعف في السياسة.

"إن السلطات الحاكمة في العالم العربي مارست كافة صور الإكراه ليس فقط ضد فئة بعينها كالمنضوين تحت لواء المعارضة السياسية أو المثقفين الباحثين عن حياة أفضل بل ضد الشعب العربي بأكمله، وتبدأ هذه الممارسات القسرية من الحجر على حرية التعبير، وتنتهي عند حدود التصفية الجسدية للمعارضين، مرورا بالإفتئات على حق الإختلاف ثم الترويع أو إرهاب السلطة والملاحقات أو المطاردات الأمنية والإعتقال والحجز أو الحبس ثم السجن السياسي أو التعذيب الجسدي والإهانة النفسية والوضع

[١] الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية للدكتور احمد محمد عطية ص: ١١

تحت الإقامة الجبرية، ليس هذا فحسب بل هناك وسائل أخرى مثل الإرتهان والإستبعاد وهي طرق تبدو ممقوتة للغاية إذا ما قيس الوضع العربي بالأوضاع التي وصلت إليها مجتمعات عديدة في عالمنا المعاصر، أو إذا اعتبرنا أن من الضرورة بمكان بوجود عقد اجتماعي بين السلطة والجماهير يقوم على ثوابت محددة متعارف عليها إنسانيا وسياسيا"[١]

والنظر في الروايات العربية الحديثة، يرى على الرغم من أن الرواية العربية تحمل قيما سياسية إيجابية وسلبية إلا أن الموضوعات المحورية، المهمة، التي تم المعالجة فيها، كانت ثلاثة:

(١) أزمة الحرية والعدل/ الظلم والتعسف (٢) أزمة الوطنية والإستقرار/ الإحتلال (٣) الأزمة الفلسطينية. وفي تناول هذه الأزمات بقيت الروايات العربية، محدودة. أصبحت الرواية المصرية مصرية، والجزائرية جزائرية، والفلسطينية فلسطينة..الخ.. وفي مقدمتهم عبد الكريم غلاب، وعبد الرحمن منيف، وغسان كنفاني.....وغيرهم.

[١] النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية، عمار علي حسين، الأهرام الرقمي http;/ digital.ahram.org.eg/articles.

المبحث الثاني

نجيب الكيلاني والرواية السياسية

"تُرَكز الرواية السياسية غالبا على القضايا السياسية المحلية والوطنية أو القطرية والقومية لمعالجتها ضمن توجهات مختلفة ومحاور متعددة، مستوعبة المراحل المتنوعة التي مرت بالقضية مع وقفات عند أحداث معينة لها خصوصيتها المتميزة، كما تتبني هذه الرواية على جانب السلطة، والحكم مصورة الإستبداد، ومصادرة حقوق الإنسان، والزج بالمعتقلين السياسيين في سجون الظلم والقهر، وبذلك يتم التبئير(التركيز)على الخطاب السياسي والعقيدة الغيديولجية والرؤية السياسية، على العالم وعلاقة الإنسان بالسلطة ومنظوره على واقعه الضيق أو الواسع"[١]

إن المرحلة الثالثة في حياة نجيب الكيلاني الأدبية من عام ١٩٦٨ إلى وفاته، كانت مرحلة النضج الأدبي عنده، ومرحلة النضج السياسي كما هو توصل إلى "المرجعية الإسلامية" بشكل يقين، وكانت ذات حساسية سياسة، أكثر من مرحلتيه السابقتين، فروايات نجيب الكيلاني، تأتي من حالة أشرنا إليها سابقا، من أحوال سياسية عربية، تبحث عن حياة سياسية أفضل منها، المستقاة من انطباعات شخصية من المقاساة الموجعة، وإتهامات سياسية من قبل السلطات الحكومية في عصره، ويستخلص أن الحكومات التي اتخذت "الهقر والظلم، والترويع سُبُلاً لحماية السطة والبقاء فيها، ولا تبالى مصير الشعب،لا يستحق التعايش أبدا سوى أنها "بيوت عنكبوتية" تهدمها عاصفة الإرادة الشعبية. كانت رواياته – مصرية الخلفية أو غيرها– كانت تسخر من كل "حكومة أو سلطة" ذات فساد وظلم، كما كان في كتاباته، ما ينتاب في قلبه "من الحنون إلى ماضي المسلمين التراثي، ليستبدل بها سياسة المسلمين اليوم. وأخذ من واقع الوضع السياسي في جميع

---

[١] الرواية السياسية والتخييل السياسي بقلم د. جميل حمدأوي، دنيا الرأي
Pulpit.alwatnvoice.com/articles

بقاع الأرض مما يتلقون من المهانات والإضطهادات، ولم يمنعه من إستيحاء مضامينه من المظلومين في البلدان الأعجمية، أن يكون عربيا مصريا، على أساس "التألم في حالة المسلمين والمشاركة في بؤسهم وراحتهم. ورؤيته إلى السلطة والحكم باختلاف آخرين من الروائيين الكثر، رؤية إسلامية، ومرجعيته في السياسة هي "المرجعية الإسلامية". وأكثر ما نرى في التعبير عنه هو"الحل الإسلامي"[١]. وإلى جانب معالجته للأحداث والشخصيات المشرقة، في التاريخ الإسلامي البعيد سياسةً، أنه قام بمعالجة التاريخ السياسي بالعهد القريب منه، كما تناول واقعه المصري السياسي. ونرى في رواياته عرض الأفكار السياسية في النص بشكل سافر وبوفرة، ولو لخصناها جميعا لتشكل لدينا موجزا لتصور سياسي واضح، كما يرى أن "حكم المسلمين لا يجوز أن يكون على قوم لا يعرفهم من قرب وبعد، إلا أنه لا يتحرك إلا آلية، بل يتقن ذلك عند من يعرف حاجياته ومطالبه. وكان حريصا لتقديم "النظام الإسلامي" الصحيح السليم في الحكم والسياسة. ففي رواياته – ذات بيئة مصرية أو غيرها– كما أشرنا إليها في الباب السابق، كان يتجه إلى النضال السياسي، بطريق تقديم مصلحة سياسية أقوى تأثيرا وأحسن شفافية.

وليس بخطأ أن نقول عندما كان يعالج تلك القضية الخارجة عن بيئته، كان ينتقي ما هو له أهمية سياسية. ونبت في قلبه تنافر، على كل سلطات سياسية، لا ترضى ترقية المسلمين، بل تتذرع بذرائع معوجة، للاستئصال أو الإعراض عنهم، بسبب الحقد التاريخي (الديني) أو السياسي. ونطقت رواياته عن الحكام أيضا، استغلوا الحكم لنشر الدين (إيديولجية) غير الإسلام، والمبادئ غير الإسلامية، التي لا تكون خير تمثيل للدين مثل المسيحية الصحيحة، أو اليهودية الصحيحة، بين المسلمين بطريق قسري. فهو في كثير من الأحيان تدقق نظراته في تاريخ المجتمع الإسلامي ليس بمصر، بلده، فحسب بل في جميع أقطار العالم، حتى وصل إلى قوم لم يكن ولا يكاد يرجى التطلع إليه، بسبب

---

[١] انظر الإسلام وحركة الحياة ج ١، ٢. وتحت راية الإسلام وحول الدين والدولة لنجيب الكيلاني .

جغرافيته، أو نسيانه عن تاريخ رسمي سائد. أما السبب الوحيد الذي دفع الكيلاني الاستطلاع بهم، فذلك بأنهم مسلمون عاشوا ويعيشون المشاكل. ومن الجدير بالذكر، أن الكيلاني في هذا التقديم، لَيكونُ معارضاً في أكثر الأحيان لما هو مسطور في التاريخ الرسمي الشائع. لأن الثورة ضد الحكام الظالمين قد تُعتبَر،عمليةً مشددة متطرفةً، أو مؤامرة سياسيةً. وكانت تلك القضايا، في عصر نجيب الكيلاني، ما كانت متناسية مطمورة، لا تعرف خطورة الواقع إلا الشعب المسلم، الذي يطرد، أو يصطاد في مسقط رأسه، أو يجبر على التخلى منه. فكان من إهتمامه أن يلفت أنظار المسلمين، إلى واقع الشعب المسلم، في جميع العالم، عربيا أو أعجميا، تحت الحكم الذي لا احترام له للدين، وإذا نظرنا في التاريخ نجد، أن نشر الشيوعية، واحتلالها في مناطق مسلمة، وتصفيتها من الشعارات الإسلامية الموروثة، على حساب تصفية الطبقات، واستصفاء الناس من الدين، ومشكلة التنصير والحملات التبشيرية،[1] قد تسببت في معاناة كثير من المسلمين في مناطق قارة آسيا، وبلدان ماوراء النهر[2]، فنجيب الكيلاني يتصدى لتسجيل هذه الأمور، على شكل الرواية. وهو يروي قصة أهالى تركستان المسلمين، في مواجهة المد الشيوعي الزاحف للحفاظ على هويتهم ودينهم وثقافتهم، في رواية "ليالى تركستان" وتدور أحداث الرواية في عام ١٩٣٠، عند احتلال الصين لتركستان الشرقية، واحتلال روسيا لتركستان الغربية. وفي "عمالقة الشمال" يحكي قصة مأساة المسلمين في نيجيريا، في فترة ما بين ١٩٦٥-١٩٦١. و"عذراء جاكارتا" تسجل صراع الشعب المسلم، في سبيل الحفاظ على دينه ومبادئه، تدور أحداثها في اندنوسيا، جاكارتا، والإنقلاب الشيوعي فيها عام ١٩٦٥، ورواية

---

[1] انظر كتاب "استراتيجية التنصير في العالم الإسلامي" د. محمد عمارة. مركز دراسات العالم الإسلامي،سلسلة بحوث الثقافة والحضارة ١٩٩٢،

[2]، موقع اسيا الوسطى، رصد الواقع واستشراف المستقبل انظر مقالات " تجأوزات الشيوعيين ضد مسلمي اسيا الوسطى، نساء تركستان الشرقية، صمود في مواجهة الاضطهاد، تركستان الصينية، الإسلام في مواجهة الشيوعية. وجراح في جسد الأمة الإسلامية، مسلمو أوزبكستان، اضطهاد تجويع وتهجير. العدوان الشيوعي على المسلمين ومراحله، بقلم: اسرة التحرير ١٢/ ١/ ٢٠١٢

"عمر يظهر في القدس" تذكر مجيء الخليفة عمربن الخطاب رضي الله عنه في القدس بعد احتلالها ويعبر عن رد فعله عندما يرى حالة المسلمين. و"أرض الأنبياء" تدور قصته حول قيام الدولة الصهيونية في فلسطين عام ١٩٤٨م، و"حبيبتي سراييفو" تحكي عن مأساة البوسنة والهرسك. ولا يوجد روائي معاصر في العربية، في العالم العربي، قد تفجع وتألم، من حالة المسلمين الراهنة، وصوت ملء حنجره عن معاناة العالم الإسلامي، والمجتمع الإسلامي، وأزماته السياسية، معطيا بصيصا من أمل النجاح الذي لا يزال يتلألأ أمامه، ومنبها عن مزالقه أكثر من نجيب الكيلاني. وحتى أصبح التاريخ له واسطة لتحقيق هذا الهدف. وفي "عصر الشهداء" ديوانه الذي حاول فيه أن يكشف معاناة العالم الإسلامي، وفي "كيف القاك" وذلك " مرثية للقرن الرابع الهجري" يقول فيه [١]

هكذا التاريخ قد علمنا ووعينا الدرس من قاص ودان
اترى نبرأ من أوهامنا اترى يا قرن قد فات الأوان

وهذه السمة السياسية في تناوله للأدب عامة عند نجيب الكيلاني. والميزة الأخرى في كتابته للروايات التاريخية السياسية منها أو البطلية، هي أن يكون له فيه منهج تاريخي في تحرى الوقائع والإحاطة بها بالعمق والصدق، لكي لا يتزيف من جهته شخصيات الرواية، بل تقترب من الواقعية التي حدثت أو تحدث، فهو يحاول لمعرفة نفسيات الشخصية المتصدى لها عن كثب، فلا يعدو في تسطيرها عما هو فيها من انطباعات ومشاعر اللهم إلا أنها تلبس بلباس فني، يخوف القارئ في حادثة مخيفة، ويمتعه في حالة جميلة شائقة. فلا يعمل هو في التاريخ إلا أن يجعله جذابا للقارئ، أو مؤثرا لحقيقة ما فيعم في قلبه تعاطف عارم للمظلومين، وذهنية الإنتقام على الظالمين، الذان لا ينحصران في حدود بلد، أو قطر، أو بقعة. بل في كل مكان أو زمان يتواجدهما القارئ. وقد اخترنا من رواياته الإستشرافية رواية "الظل الأسود" للدراسة، لوجهين، لنعرف تاريخا سياسيا، استمده من التاريخ القريب، وطريقة نجيب الكيلاني في تقديمه كرواية.

---

[١] شخصيات روايات د. نجيب الكيلاني دراسة وصفية تحليلية ص: ٧٢، ٧٣،

إنه سار نحو تنبيه الناس إلى واقعهم المتردي عن طريق الإشارة إلى ما يحفل به التاريخ من وقائع وأحداث تاريخية هامة. ولكن لم يقفا فحسب عندما يفرزه التاريخ من صور مشرقة وأحداث بطولية. بل جاوز ذلك إلى الإهتمام بما عرفه تاريخ الإسلام من صور مأساوية مظلمة عاش خلالها المسلمون كثيرا من النكبات والمفاجع الخانقة التي أحاطت بهم من كل جانب إلى أن قضت على مجدهم ودولتهم، الشيء الذي دفعه إلى الإهتمام بالأحداث التاريخية قديمها ووسيطها وحديثها.

يقول نجيب الكيلاني "من واقع اهتماماتي بالشعوب الإسلامية، وقراءاتي في تاريخها وانفعإلى العاطفي بما تعانيه، من مشكلات داخلية وخارجية، كتبت العديد من الروايات أهمها: ليالى تركستان، وفيها عرضت لمشكلات شعب تركستان المسلم، وتوقعت بأنه سيحافظ على إسلامه، وسيكون له في يوم من الأيام كيان إسلامي مستقل وقد تحقق هذا الكلام بعد أكثر من عشرين عاما، برغم سخرية الكثير مما كتبت في ظل الإضطهاد الشيوعي للمسلمين هناك...وقالوا إن ما أكتبه عن تركستان مجرد أضغاث أحلام، وكتبت في رواية عذراء جاكارتا وتناولت فيها الحرب الضروس بين الشيوعية والشعب الاندونيسي، والتى راح ضحيتها أكثر من ربع مليون مسلم، وترجمت هذه الرواية إلى الاندونيسية، وكتبت كذلك رواية عمالقة الشمال وفيها تناولت مشكلة المسلمين، في نيجيريا، وقال لى مهندس نيجيري فيما بعد، أنها من أصدق ما كتب عن نيجيريا، حتى كأنني كنت معايشا لهذه المشكلات، برغم أنني لم أسافر قط إليها".[1]

"ومن الدواعي الحافزة على استدعاء المعطى التاريخي لدى القاص الإسلامي، الرغبة في التأكيد على ما يحفل به التاريخ الإسلامي من حوافز على التغيير، ومن شأن إستيعابها على النحو الصحيح أن يسهم في تقديم الحلول الناجعة والأدوات الفعالة لتغيير الواقع، ويكاد ينفرد بهذا الداعي، القاص نجيب الكيلاني فهو يختار أحداثا تاريخية معينة بطريقة

[1] حوار مع الأديب نجيب الكيلاني اجراه: محمد عبد الشافي القوص،نشر في مجلة الأدب الإسلامي عدد ١٠– ٩، بتاريخ ١٤٠٦ هـ

فنية متميزة من شأنها أن تبث الحياة في المعطى التاريخي وتجعله أقرب إلى الإستجابة لمتطلبات الواقع. ولئن احتفى نجيب الكيلاني كغيره من الكتَّاب بالصور المشرقة من تاريخنا الإسلامي إحتفاءه بالصور المظلمة منه قديمه وحديثه، ليس ما يهان به، فإنه تميز عن الكتاب الآخرين، بتجاوزه القراءة السطحية للحدث التاريخي، واعتماده نظرة شمولية متعمقة تركِّز على الأسباب الجوهرية التي أدت إلى تقدم المسلمين حين تقدموا وإلى تأخرهم حين تأخروا، ثم يعمل على استنباط حوافز تغيير الواقع المعيش إلى واقع العدل والمساواة والأمن. وهمُّ الكيلاني قبل هذا وبعده هو الدعوة –من خلال القصة التاريخية – إلى الرجوع إلى المنابع الأصيلة لديننا الحنيف كما تمثلها أسلافنا الأوائل. فيا حبذا يتمنى الكاتب "لو بقيت عيوننا مفتوحة على المصادر الأولى والمنابع الصافية".[1]

أما الروائيون عندما استمدوا من الصراعات السياسية، التاريخية الإسلامية لجئوا إلى خلق جو غير قابل للإنهاض بل لعرض الجوانب الضعيفة في التاريخ الإسلامي كما هو الأمر، عند الروائي جرجي زيدان[2]. وهم يستمدون منه مادة أعمالهم وفق قناعاتهم الذاتية والفنية وموقفهم الفكري المتعلق به. "أما اختيار نجيب الكيلاني مضامين للروايات، التاريخية، فذلك ليربط في تصويره لقضايا أخرى معاصرة، تهم بالواقع المسلم اليوم، وتاريخه المعاصر، والصراع التاريخي بين الإسلام وخصومه في هذا العصر، ويظهر إنسانية الإسلام والمسلمين. القصة الإسلامية صياغة فنية يرتبط فيها الماضي بالحاضر، لتشكيل المستقبل..فلذا جاء إهتمام القصة الإسلامية عنده بالواقع السياسي والإجتماعي إضافة إلى الواقع التاريخي. وكان المضمون التاريخي في رواياته وثيق الصلة بالمضمون السياسي. فإن القاص قد يحاول إسقاط مضامينه على الواقع السياسي المعاصر، أو على

---

[1] مقال نشر موقع الخيمة بيت المعرفة " التاريخ وحوافز التغيير في الرواية الإسلامية الحديثة مجموعة – دموع الامي لنجيب الكيلاني نموذجا، بقلم رشيد الاركيبي– المغرب. Khayma.com

[2] انظر كتاب جرجي زيدان في الميزان كتبه، شوقي ابوخليل، عام النشر ١٩٨١، وقد عده كثير من النقاد انه شوه تاريخ الإسلام، رغما بأنه يعرف " رائد رواية التاريخية الإسلامية".

المسارات الوطنية أو النضالية ضد الإستبداد وسياسة القهر.[1] واستمد نجيب الكيلاني لتحقيق هذا من التاريخ السياسي والتاريخ الإجتماعي، كما هو من الواقع السياسي الإجتماعي. ورواية الظل الأسود ذات مضمون تاريخي سياسي قريب لعصره.

[1] صورة المرأة في قصص نجيب الكيلاني دراسة نقدية تحليلية، ص: ٢٧٦، بحث مقدم لنيل ماجستير في قسم الدراسات العليا العربية اعداد. حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي

المبحث الثالث

رواية "الظل الأسود" دراسة تحليلية ونقدية

حبكة الرواية

رواية الظل الأسود، تحكى قصة عائلة ملكية في الحبشة، من العشريات إلى ثلاثينيات القرن العشرين،[1] اعتنق البعض منها الإسلام قلبا، ولكن الظروف المتواجدة في المملكة، لم تسنح فرصة التصرف مع دينهم بالحرية. فبقوا نصرانية بالظاهر، وملوك الحبشة الحديثة كانوا في عاداتهم أن يحملوا ضغينة للإسلام والمسلمين. وخافوا انتشار الإسلام في ربوعها، فاحتالوا بحيلة القتل والتدمير. وقعدوا للسلمين كل مرصد. وكان ملك إياسو، واحدا من"ملك الإمبراطورية" من هذه العائلة المسلمة، الذي أصبح إمبراطورا للحبشة بعد جده "منليك العظيم" وتولى مقاليد الحكم. وامبراطورية الحبشة بصفتها نصرانية، بكل معنى الكلمة، لا تسامح لغيرها من الديانات وخاصة للإسلام. لأن بطاريق الحبشة، ظنوا أن الإحتفاظ بالمسيحية، دَيْنٌ على رقبتهم، وعلى الرغم من كونه ملك الحبشة، أعلن اياسو إسلامه علنا، وقال "سأعلنه على الملأ، فاما أن انتصر أو أموت دونه "[2]-، كغير أبيه الذي كان يضمره، وتنصروغير إسمه كميكائيل لأجل حماية المسلمين وتنقيص المشاكل المربوطة به، بل لازال مسلما بقلبه، وكان إسمه الأول "محمد علي". وعلى عكس أبيه كان اياسو، متحمسا للإسلام، وعارفا لصحته، ونافرا لكل ما يقوم به المطران والقيادات النصرانية باسم الدين المسيحى، والنفاق المحيط بهم، كما كان مقتزا من مقاساة المسلمين، واشتتات الإمبراطورية بين الإشتباكات الطائفية والعصبية، والمؤامرات الداخيلة القصدية لإستئصال المسلمين، وزعمائهم. وقد أثار اعتناق إسلامه جدلا كبيرا في أوساط الزعماء

---

[1] الحدث القصصي في رواية الظل الأسود تقع ما بين ١٩١٣- ١٩٣٥، تنصر اب الأسرة، تحت ضغط الملك منليك الثاني، حينما يكون حاكما للامارة" وللو".

[2] الظل الأسود ص: ١٢

المسيحية، واعتبرها "عنادا على الإرادة الالهية"، على الرغم من حرصه على إنهاء جميع أنواع الظلم والفساد. وسرعان ما انتشرت الشائعات بين الناس، وكان صهره "رأس تفري" مسيحي متوهج الحماسة، فبدأ يدبر له التدبير. إن اياسو كان يرى أن الممالك الدولية ستستغل نفوذها في الإمبراطورية، لأغراضها، واستضعاف الإمارات الإسلامية، والخلافة الإسلامية في تركيا، وقد عزم إياسو للزحف مع جيش إلى جنوب الحبشة، وكان معه الشعب يحبه، ولكن قد تآمر عليه وعلى أسرته، وهاجم المسيحيون القصر، في غيابه عن القصر، سقط كثير من أفراد أسرته وخدمانه صرعى في ساحته، وبعد الإستيلاء عليه، وإراقة دماء كثير من الناس، تم إصدار بيان ميتاوس الأب الأكبر، بعزل "اياسو" من الحكم وتولية زوديتو إمبراطورة الحبشة، وتفري قائدا عاما للجيش، فتم المؤاخذة عليه واقتيد إلى السجن وظل فيه سنوات طويلة، ولكن الجذوة التى اتقدها إياسو، من المحبة، والسلام، والأمن كانت مشتعلة في نفوس رجال الحبشة، ليفكروا أنه لا بد أن يعلو صوت اياسو، في جنبات الدولة، وشمر بعض الرجال عن ساقهم لإنقاذه من السجن، وبراثن الوحش الآدمي، و"لابد أن نشعل الثورة من جديد" فر معهم اياسو من السجن، ولما بدأت الجيوش المسولنية، الهجوم عليها، يحن إليه الناس أن يأتي من جديد، لأنه رجل الساعة. ثم سجنه مرة ثانية، فقد تفري كل شيء حتى جيشه، وقد فهم تفري خطورة الأمر، أراد الهروب إلى انجلترا، تاركا شعبه للذئاب الكاسرة، ولكن ينتقل اياسو إلى جوار الله في معتقل غراموليتا إلى جوار الله، يبكون له الشعب والناس المتلهفون إليه، نعرات رفعت في جو السماء.. *"يا أبا الأمة.....يا ربيع الحب يا اياسو.... هرب الثعلب والعار وراءه..."*[1]

رواية الظل الأسود وثيقة تاريخية

يقول نجيب الكيلاني "تناولت في ظل الأسود مشكلات المسلمين في اثيوبيا، وسردت فيه الكثير من الحقائق التاريخية التي يجهلها أهل اثيوبيا أنفسهم، وذلك لأن حصلت على

[1] الظل الأسود ص: ١٥٥

وثائق تاريخية، مهمة وسرية، من ثوار ايرتيريا ومشكلات المسلمين هناك، ولهذا فان الأدب الإسلامي يجب أن يكون فيه متسع لكل مشكلات المسلمين في العالم، ويعبر بصدق عنها، حتى يظل مرتبطا بروابط وثيقة بوجدان القارئ المسلم وعقله، في أي مكان بالعالم، لأنه يجد فيه ضالته، ويعبر عن آماله وآلامه، بكل صدق وموضوعية"[1] وقد أصبح الإسلام والمسيحية في الحبشة، وحالة المسلمين فيها، ومعاملة الملوك المسيحيين معهم، وعلاقة الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية، والثورة الإسلامية ضد الإمبراطور، محور مضمون الرواية، من حيث الإسترجاع إلى التاريخ القديم، لإستذكار وضع المسلمين الفادح، لكي يصل إلى واقع المسلمين المعاصر، وكيفية تسلل العنف الطائفي الممقوت، إلى ملوك الحبشة المسيحية، ودور الأباطرة والبطارقة، والقوى الدولية الغربية في إشعالها وتعزيز محاولات الإزالة للعنصرية الإسلامية من اثيوبيا، واشتراك القوى الإسلامية الخارجة في إنقاذ الممالك الإسلامية، إلى أن أدت الحالة إلى حروب دامية، شرسة بين القوات المسيحية والإسلامية، ونمو الحقد بينهما. أن الهدف الذي يتشرف به الأديب أن يُظهِر مسلما غيورا، ثائرا على الظلم والفساد، والقيود على الحرية الإنسانية، كائنا من الرموز الباقية، التي لم تزل ولا تزال تشحن في قلوب المسلمين المضطهدين تحمسا وغيرة على دينهم، وتراثهم الأصيل. ومن هذه الناحية التاريخية يمكن اعتبار الرواية ظل الأسود، وثيقة تاريخية، بدقتها وتفاصيلها. وقد احتججنا إلى الدراسة عن تاريخ المسلمين والمسيحيين في اثيوبيا، من البداية إلى الزمان الحالي الذي تتحدث عنه الرواية، لأن العلاقة المسلمة المسيحية، المتوترة، في اثيوبيا لم تكن تتشكل من الفراغ بل هي نتيجة من الصراعات والتشابكات الدامية، والحروب الشرسة المتوالية، بين الملوك النصرانية والإسلام، بسبب الدين حتى تجسدت حقدا وبغضا بين القومين حتى إلى يومنا هذا. فرواية ظل الأسود

[1] حوار مع نجيب الكيلاني محمد عبد الشافي القوص، نشر في مجلة الأدب الإسلامي عدد ٩- ١٠ بتاريخ ١٤١٦

جديرة لأن تُدْرَس من ناحية أهميتها التاريخية، والسياسية التي يستطيع من خلالها سبر أغوار التاريخ الإسلامي والسياسي في الحبشة.

اثيوبيا والإسلام

جمهورية اثيوبيا الفدرالية الديموقراطية، دولة غير ساحلية، الواقعة في قارة إفريقيا، التي كانت تعرف في الأدبيات العربية بـ"الحبشة"[1]. وهي ثاني أكبر دولة إفريقية في عدد السكان، عاصمتها، أديس أبابا،[2] تجاورها كل من جيبوتي والصومال من جهة الشرق وايريتريا من الشمال والسودان من الغرب وكينيا من الجنوب. كانت العرب في صلة مستمرة مع الحبشة، لأغراض التجارية والترقيق[3]. وبعد ظهور الإسلام أصبح الغرض دينيا، وبدأ بعهد النبي صلى الله عليه وسلم، لأن المسلمين أُمِرُوا، للهجرة إليها، فرارا بدينهم وتخلصا من معاناة المشركين، فقاموا بالهجرة الأولى والثانية، من أرض الإسلام، إلى أرض الحبشة،[4] لاجئين إلى ملكها "النجاشي"،[1] لما عرف بعدله وسماحة خلقه وحسن

---

[1] الحبشة القديمة كانت ما تضم حاليا اثيوبيأوالصومال وايريتريا، اما سبب التسمية بها، اثيوبيا كلفظ كلمة يونانية تعني " ذوي البشرة المحروقة" وقد اطلق عليها العرب اسم الحبشة وذلك نسبة إلى قبيلة " حبشت" التي عبرت البحر الأحمر من جنوب اليمن واستقرت في افريقيا بين القرنين السابع والعاشر قبل الميلاد. مقال: بعد توغل الأثيوبي في الصومال ماذا عن وضع الأقليات الإسلامية في بلاد النجاشي، د. مجدي الداغر. شبكة النبأ المعلوماتية.

[2] معناها " الزهرة الجديدة بناها الإمبراطور منليك الثاني – تاريخ اثيوبيا، دكتور زاهر رياض

[3] وكانت عرب اليمن في علاقة مع الحبشة قبل الإسلام لأجل مصالحهم الاقتصادية كالتجارة والترقيق وكانوا يحملون عليها للتسلط عليهم ولذا كانت الاحباش يكرهونهم اشد الكراهية،

[4] وكانت الهجرة إلى الحبشة على مرتين المرة الأولى في رجب من السنة الخامسة من البعثة وعادت في شوال من نفس السنة وكان عدد من هاجر من المسلمين ١١ رجلا و٤ نسوة على رواية وعشر رجال وثلاث نسوة على رواية أخرى خرجوا من مكة متسللين منهم الراكب ومنهم الماشي حتى انتهوا إلى ميناء صغيرا على شاطئ البحر الأحمر هو ميناء الشيبة وهيأ الله للمسلمين سفينتين للتجار أقلعتا وقت وصولهم فحملوهم معهم إلى أرض الحبشة بنصف دينار وجاءت قريش في أثرهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوا منهم أحداً. لم يخرج المسلمون في المرة الثانية إلى الحبشة دفعة واحدة بل على دفعات متلاحقة

معاملته مع الديانات الأخرى الموجودة آنذاك. ثم واصل العلاقة معها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه،[٢] حتى تتابع المسلمون بالتجارة. وهذه العلاقة الإقتصادية كانت سببا مهما في انتشار الإسلام في ربوع الحبشة، وأسلم كثير من الناس واستوطنوا فيها، واستمرت العلاقات بين الجزيرة العربية والحبشة بعد ذلك، وأصبح العرب يترددون إليها، واستقر بعضهم هناك، على أن الاحداث السياسية في الدول الإسلامية أدت بعد ذلك إلى زيادة الهجرة إلى الحبشة والإستقرار بها فالحبشة بموقعها الجغرافي وخصبها، واعتدال مناخها، وتنوع مواردها، كانت مغرية للمهاجرين، للعمل سواء للزراعة أو الرعي أو التجارة. وازداد عدد السكان المسلمين فيها، واسلمت قبائل وثنية كثيرة. فقوي الإسلام في أرض الحبشة. وبمر الأيام، قد أقيمت فيه ممالك إسلامية سبعة مهمة وكثير من الإمارات الإسلامية.

أهم السلطنات الإسلامية

وقد هاجر عدد من القبائل العربية واستقرت في السهول الساحلية المحيطة بأرض الحبشة، وتحولت المراكز الإسلامية إلى إمارات أو ممالك إسلامية أُطلق عليها البعض اسم إمارات أو سلطنات الزيلع الإسلامية" أو " الطراز الإسلامي". [٣]

اشتدت إبان حصار قريش ومقاطعتهم للرسول وبني هاشم في شعب أبي طالب واكتمل عدد المسلمين بالحبشة في هذه المرة اثنين وثمانين في معظم الروايات ولكن المدقق في قائمة ابن هشام يجد أن عدد المسلمين في الحبشة كان ٧٨ رجلا و ١٧ امرأة و ٨ من الأبناء فيكون عدد المهاجرين ١٠٣ في مقدمتهم جعفر بن أبي طالب.

[١] اصحمة بن ايجر النجاشي النجاشي لقب لملوك الحبشة وراثيا (معجم الوسيط). وكان اسم النجاشي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم،

[٢]وقد ارسل عمر رضي الله عنه سرية في سنة ٢٠ هـ بقيادة علقمة بن مجزر المدلجي فلم توفق بشيء، فجعل عمر على نفسه ان لا يحمل في البحر احدا للغزو، الإسلام في الحبشة، يوسف احمد ص:،٢١

[٣]مهدت اثيوبيا العديد من الممالك الإسلامية والتي سميت ممالك اطراز الإسلامي وهي عبارة عن امارات صغيرة، حكمت جزءا كبيرا من بلاد الحبشة، واسهمت في نشر الدين الإسلامي وترسيخ التسامح

السلطنات الهامة: سلطنة أوفات، عدل، فطجار،دوارد، بالي، دارة، شوا، هدية، شرخة. وإمارة هرر وجام. إن لم تكن تلك السلطات موحدة، قد حصلت كل منها على امتياز خاص بقيادة ملوكها وسلاطينها الحريصين على الإزدهار، وتفوقوا في العلم والحضارة. على الرغم من رفاهية المملكات الإسلامية، وازدهارها كان الإمبراطورون–النجاشيون– ينظرون إليها بعين الحسد، وعز عليهم أن توجد سلطنات إسلامية تفوق مملكتهم، والغارات المستمرة على الإمارات الإسلامية، جعلت القوات الحبشية متغلبة على المسلمين، وذلك بعد ما أصابت القوات الإسلامية من فتور بعد مقتل قائدها الأول الإمام أحمد.[1] وأصبح نشوب الصراع بين السلطنات الإسلامية والمملكة غيرها سجالا وكذلك بين الأمراء المسيحيين على حجة حقية الوراثة.

وقد يمكن تقسيم التاريخ الإسلامي في اثيوبيا، إلى فترتين: الأولى يمكن اعتبارها فترة ازدهار ظهرت فيها قوة المسلمين. والثانية فترة المحنة والمأساة والتي تبدأ مع الضعف الإسلامي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين والتدخل الأجنبي لمحاربة الإسلام، الفترة الزمانية التي تُركِز عليها الرواية "الظل الأسود".

المسيحية والإسلام في الحبشة

إن تركيب المجتمع الحبشي، تعددي من العناصر الدينية، والعرقية، واللغوية، والجغرافية. أما العنصر الديني في الحبشة فمعقد إلى حد كبير. يعتبر التاريخ أن الوثنيين هم

الإسلامي إلا ان هذه الممالك تم اجتياحها بواسطة القوى المسيحية في اثيوبيا (مقال: ممالك الطراز الإسلامي في اثيوبيا (تاريخ منسي أو تناسوه) وقد سميت بالطراز لانها على جانب البحر كالطراز. السلطنات الإسلامية في القرن الافريقي د. محمد حسين معلم (شبكة الشاهد الاخبارية) .

[1] انه الامام المجاهد احمد بن ابراهيم الغازي (١٥٠٧–١٥٤٧)، امير مملكة "عدل"، وانه قاد حركة إسلامية في منطقة القرن الإفريقي وشرق افريقيا، فقام بنشر الإسلام في جنوب اثيوبيا، ووقف امام غزو الأحباش بمدينة هرر الإسلامية، عام ١٥٢٧، وهزمهم ثم دخل"شوا" وامهرا في قلب الحبشة. واستطاع نشر الإسلام بين القبائل الجالا في جنوب الحبشة.

الأصليون في أرض الحبشة.[1] وقد وفدت اليهودية، بدخول الجماعات السامية إليها. على الرغم، من أسبقية الوثنية، واليهودية، قد استولت المسيحية في الحبشة. وهي (اثيوبيا) تعتبر أولى المناطق الإفريقية، شهدت لدخول المسيحية في القرن الرابع الميلادي على يد القديس فرومنتيوس. وفي تلك الأيام اعتنق الملوك المسيحية، وأصبح دينهم دين الرعية المحكومة. وبمر الأيام أصبحت المسيحية دينا رسميا،[2] والكنيسة مدار السلطة، والبطارقة –القساوس والرهبان– مرشدوا الملوك. إن أرض الحبشة، بالنسبة للمسلمين كانت مأساة، أكثر من كونها ملاذا. وقد كانوا متعرضين للظلم والمؤامرات منذ أوائل الإسلام فيها، حيث ثار عليهم قساوس الحبشة، لما جاءوا لاجئين من الحجاز، اللهم إلا أن النجاشي الذي كان رجلا، متعاطفا معهم، خبيرا بدينهم. وفي تواصل الأيام، كانت الأحباش تعتبر الإسلام مهددا للدين المسيحي، والكيان العرقي الخاص بهم. ولم تكن تتغير، إلى العصر الحديث هذه العقلية العدائية تجاه الإسلام والمسلمين. وكانت بطارقة اثيوبيا، شديدي التعصب لدينهم، فعز عليهم أن قام في مدينتهم المسيحية شعار آخر. وكانوا ينظرون إلى الممالك الإسلامية بعين الحقد والحسد، وانتهزوا كل فرصة لكي يهجم عليهم.[3] وفي هذه الحالة الحرجة، كان مما لا بد منه أن ينهض المسلمون، دفاعا عن إيمانهم وأنفسهم، وحرية تصرفهم، جراء طغيان حكام الحبشة، المختلفين عنهم دينا وجنسا. وقد أدت الحالة إلى اندلاع ثورات دامية، ومخيفة بين الإسلام والمسيحية، طالت أكثر من ستة قرون. وقد

---

[1] التعددية الدينية في اثيوبيا تجارب التعايش والصراع الاثنوديني ومستقبل الوحدة الوطنية مقال اعده د. عبد الوهاب الطيب البشير

[2] كانت الوثنية القديمة تسيطر على اثيوبيا حتى تسربت اليها المسيحية في وقت مبكر عن طريق العلاقات مع بيزنطية بمصر، وتم تأسيس الكنيسة الحبشية على يد فرومنتيوس الذي أوفده " اثناميسوس" بطريق الإسكندرية، فنجح في اقناع " عزانة" ملك الحبشة باعتناق المسيحية وجعلها الدين الرسمي للدولة عام ٣٥٠ ميلادية ثم اعاده منليك الثاني في مدته .

[3] الإسلام في الحبشة، احمد يوسف

حمي الوطيس بعد أن استولى على العرش "الأسرة السليمانية"[1]، بقيادة يكونة املاك، وقام بعدة مبادرات هجومية، وعدائية ضد المسلمين، لترسيخ المسيحية في الحبشة، وإكبات الإسلام، الذي يظهر كقوة جديدة. ولم يكن تختلف أخلافه في اتباع سلفهم، من ظلم، وقسوة، وانتهاك الحرمة. وكان كل من الملوك المسيحين يفوق الآخر، بهذا الصدد، بحيث يرون العمل إرضاء "للإرادة الإلهية" وتنفذها ورغم أن بعض الأحباش اعتنقوا الرسالة المحمدية، إلا أن ملوك الحبشة ظلوا على آباء دينهم، ومع ذلك لم يمتد الفتح الإسلامي إلى هذه البلاد المسيحية، التي ارتبطت كنيستها بكنيسة الكرازة المرقسية بالإسكندرية"[2]

وكانت علاقة الناس في الحبشة الخارجية مزدوجة بين الأتراك، حيث إن الممالك الإسلامية، قامت بالدعم والإستعانة لها، وكانت للأتراك فيها أطماع سياسية ودينية، كما هو الأمر عند الملوك المسيحيين، بتعلقهم بالدول الأوروبية. إن تلك الدول أصبحت لهم، بمنزلة المعاون والحامي من سيطرة الأتراك، وعلموا أن الإسلام سيغلب إذا وهنت الإمبراطورية، وتضيع ميزتها المسيحية، إلى جانب ذلك كانت القوتين من الأتراك وأوربا، في ذلك الحين تجهدان للهيمنة على الدول الثالثة. وكان من عادتهم أن يستنصروا من البرتغاليين وفرنسا وانجلترا لحماية دينهم، وإزالة الممالك الإسلامية. وكان الوقت عند ظهور الحرب العالمية الأولى واشتداد التحالف في تقوية جوانبهم السياسية. وكانت تركيا حليفة إلمانيا، بينما كانت انجلترا وفرنسا وايطاليا في صف معارض، فقد أصبحت اثيوبيا

---

[1] تولت الأسرة السليمانية التي تدعي النسبة إلى النبي سليمان عليه السلام عرش الحبشة عام (٦٦٩ هـ ١٢٧٠م) بعد اقالة ملوك الأجويين وبالرغم من اخلاص الأجويين للكنيسة لعبت الكنيسة دورا كبيرا في انهاء عهدهم وتولية (يكونو املاك) وزاد اعتماد الأباطرة على رجال الدين ومن هنا بدأ الصراع بين المسيحية والممالك الإسلامية. انظر كتاب تاريخ اثيوبيا للاستاذ: د. زاهر رياض ومقال " الصراع ما بين الإسلام والحبشة" بقلم –برهان زينو احمد.

[2] انظر " هيلاليسي والحبشة للدكتور رأفت غنيمي الشيخ" . علاقة مصر بأثيوبيا قديمة من حيث الدين والسياسة من جهتي المسيحية والإسلام. وكانت كنيسة مصر هي التي تعين المطران في الحبشة. وبعد ظهور الإسلام قد كان له تدخلات دينية من قبل الاتراك ايضا.

ساحة معركة بين الأتراك، الذين ينظرون إليها موضعا صالحا للخلافة، بدعم الممالك الإسلامية والقوى الدولية والمصريين والأوروبيين على حد سواء.[1]

الوضع الاجتماعي تحت ملوك المسيحيين

إن الوضع الإجتماعي، تحت إمبراطور المسيحية كان مترديا، لأن الملوك استخدموا الدين، وسيلة الإستغلال، والصراع، وبث الحقد والعنصرية والطائفية العمياء ضد المسلمين. لأن الإسلام، وانتشاره بين الوثنيين، وكذلك القبائل المسيحية، كان من أكبر تحدياتهم في إرساء دولة مسيحية، بحتة. وهذه العدوانية المتوارثة، قد أثرت على الأوضاع الإجتماعية إلى حد كبير، من التعليم، وحرية العبادة، والدين، والعلاقات الإنسانية. وإن كان المسلمون في القطر البعيدة، التي توجد فيها الأغلبية المسلمة، لا تمسهم المعاناة بكثير، ولكن مسلمي قطاعات ذات أقلية مسلمة، عانوا من مشاكل كثيرة، تعليمية، إقتصادية، إنسانية. "إن المسلمين في عاصمة الحبشة، لم تسمح لهم الحكومة الحبشية لبناء مسجد ولاقامة الشعائر الدينية ولا بإنشاء مقبرة، للمسلمين.[2] " وإن المسيحي الحبشي لا يأكل مع المسلم، على مائدة واحدة، والمسلم أبعد عن تلك الجبلة، التى تبيح له أن يكون هو وخصمه على قدم المساواة، أمام القانون، أما ذلك القاضي الذي بيده الحل والربط، فلا بد مظهره في تلك القضية، إلا على اقتناعه بوجوب إدانة الرجل المسلم، قبل استماع ما يقوله دفاعا عن نفسه".[3] وفي الأعياد الكبيرة السنوية، قد جرت العادة، أن يقيم حاكم كل اقليم، الولائم الفخمة، التي تذبح بها العجول السمينة، وتقدم لحومها للأهالى، والجنود، إنما يختص بها المسيحيون فقط، ومجمل القول: إن مسلمي الحبشة، عموما ومن كان منهم يقيمون في أوساط مسيحية بنوع خاص، يعيشون بدرجة كبيرة من الإضطهاد، والظلم، والإستبداد بالإضافة إلى الضرائب الباهظة للمسلمين، التي يحملها الملوك عن قصد. وكانت الملوك

---

[1] تاريخ اثيوبيا لد. زاهر رياض

[2] الإسلام في الحبشة لاحمد يوسف

[3] الإسلام في الحبشة لاحمد يوسف

يتزوجون نساء المسلمات قهرا، بحيث شق عليهم التحفظ بالدين، وكثير منهم تنصروا، وآخرون نزحوا من تلك البلاد إلى بلاد مجاورة آمنة. وهذا الأمر لم يكن يختلف كثيرا فيما بعد، إلا أنها ازدادت تزايدا كبيرا، بحيث أن عهد الإمبراطوريين الحديثين "منليك الثاني" و"هيلاليسي" كان من أصعب الفترات للمسلمين وأكثرها دامية. ورأوا إزاحة المسلمين والإسلام مهمة من المهمات العظيمة. ونقوم بتفصيل الوثائق التاريخية، عن الشخصيات التي قامت الرواية "الظل الأسود" بتحليليها، وتشخيصها. [1]

الشخصيات والأحداث الروائية في الرواية والتاريخ

إن تسجيل التاريخ والإبداع الفني الروائي، يختلفان من أساسهما، ووظيفتهما تتجه إلى إتجاهين مختلفين لا علاقة بهما بالآخر، لأن أساطير تاريخية كثيرة، قد تم توظيفها في الرواية العربية أو غيرها بشكل واسع، غير أنها اختلفت اختلافا كبيرا، في أداءها، ولم يكن من المهم، عند الروائي أن يكون صادقا أو كاذبا، بالواقع بل "إبداعه الذي يتسع للخيال مجالا كافيا". وفي الرواية الفنية، أن المقدرة الفنية وعليتها هي التي تهتم أولا، والحقائق التاريخية تبعية، ورواية "الظل الأسود" تمتاز بالتزامه الخاص، على أن تكون أحداث الرواية، واقعية، صادقة بالوثائق التاريخية الصحيحة عند الكاتب. كما تمتاز بلغتها الرشيقة، وتتابعها الممشوق، وهي تتحدث عن مسلمي اثيوبيا، والإضطهاد الذي تعرضوا له، على يد الإمبراطور "هيلا ليسي" ومحاربته لإمبراطور اثيوبيا الشرعي الذي أعلن إسلامه وقرر الوقوف ضد استعمار بلاده والقوي التبشيرية فيها وتتحدث عن الحرية والحب، وعن المعتقلات والسجون كعادة نجيب الكيلاني دائما. إن "الظل الأسود" رواية تستمد من التاريخ مضمونا وشخصيات حقيقية، وإنما امتاز نجيب الكيلاني في رسيم نفسيات الشخصيات التاريخية، ووجدانياتها حقيقيا، يجب أن يكون هو نفسياتها الحقيقية بما عرفنا

[1] ولتفاصيل مشاكل المسلمين في الحبشة عبر التاريخ يمكن المراجعة إلى " كتاب رحلة الحبشة" للصادق باشا، مندوب عثماني في بلغاريا ومقال الحبشة والعالم الإسلامي عدأوة قديمة موقع قصة الإسلام باشراف د. راغب السرجاني

من الوقائع التاريخية سابقا. أما كونه حقيقيا، في الإبداع، فإنه لم يعدل قط عن زمان ومكان الروائيين بل أسماءها، وبيئاتها، وأحوالها السياسية والإجتماعية. فالتعبير عن الشخصيات في "ظل الأسود" هو الذي يميز، إبداع الكيلاني بهذا الصدد، لأن التاريخ السياسي، ووثائق متعلقة به، كانت موجودة، عنده، ولم يكن دخل في تنسيقها، وترتيبها، الذي يحتاج إلى جهد كبير للروائي باستعانته بالخيال، الذي هو أحد مقومات الفنون. نحاول هنا للقيام، بالشخصيات الروائية، لكى نغطى جوانبها الفنية.

وفي أداء الرواية الفنية، لم يطغ الفن التاريخ الذي يستمده منه. إن الأحداث الروائية في رواية الظل الأسود، صادقة بالوثائق التاريخية المتوفرة، إلا أنه أعطى صبغة إسلامية أكثر منها سياسية. وقراءة الأحداث التاريخية وشخصياتها، في بعض الأحيان تختلف مع القراءة السائدة لتاريخ اثيوبيا المعاصر. الشخصيات التى كانت رواد النهضة الحديثة لأثيوبيا، في التاريخ المكتوب، كان في الرواية رموز التخلف والإستبداد ومنع الحرية، أما هجوم الممالك الإسلامية، تعد في التاريخ "تهديدا إسلاميا" أو "إحتلالا على الشعب الأثيوبي الذي أصبح عائقا للنهضة وجعلها ساحة المعارك "أكثر من كونها "ثورة" صحيحة مبررة. كما هو الأمر في شخصية "اياسو" الذي كان ثائرا، وخارجا على قوانين الدولة، ومحفزا ومستغلا وممزقا الوحدة القومية، ومبغضا للأغلبية المسيحية، وكانت أعمالها بدون حكمة وتدبير. وكانت المبادرات التاريخية في اثيوبيا من قيامهم ضد المسلمين، لم تقرأ على أنها حملة ضد الإسلام والمسلمين بل حملة إيجابية باسلة لإنقاذ البلاد من أصحاب التخلف والركود والأصوليين المتطرفين.

عهد النجاشي المنليك (١٨٨٩- ١٩١٣)

شخصية النجاشي المنليك الثاني إمبراطور الحبشة من عام ١٨٨٩- ١٩١٣ تأتي في الرواية وتظهر في عدة مرات. وكان لها دور كبير في خلق نفسية "إياسو" الشخصية الرئيسية، وكان يستذكره مع زمنه دائما في حواراته مع غيره، لكي ينفض منه طيفه

المخيف. "أعني أن ميتأوس يريدني صورة طبق الأصل عن جدي منليك، انه يريد كل يوم أجراسا جديدة تدق، وكنائس تقام، ومساجد تهدم، وحرائق تشعل، لقد أصبح ذلك عاديا لا يثير أية غرابة تماما مثلما تفكرين في السرير الذي لا يتسع إلا لإثنين"[1]

كان عهد منليك الثاني،[2] الذي كان في البداية أمير شوي، مليء بالصراعات، بين الأمراء المسيحية، على إرث الإمبراطورية، وبين الممالك الإسلامية إلا أنه كان أكثر حرصا عليها، وقد أطلق عنان الفساد، في بلاد المسلمين ليستولي عليها، ونشر الطائفية والعنصرية بين المسيحيين والمسلمين، وإنه أراد ضم الممالك الإسلامية، إلى الحبشة، وأرغم المسلمين للنزوح منها، فقتله، وعاث بالقتل والنهب. وقد تعدى الأحباش على مملكة هرر الإسلامية، بعد أن أخلى المصريون "هرر" وانسحبت منها حمايتهم المصرية، ١٨٧٥ وأعيد إلى عرش الإمارة الأمير عبد الله بن على فلم يحل ذلك للرأس منليك، صاحب شوى، فأغار عليه بجيشه، وقاتله ١٨٨٧، وهزمه واضطر الفرار إلى بلاد أوجادين. وكان توليته للعرش بالنسبة للمسلمين من أشق المراحل التاريخية في اثيوبيا. وقد أثبت التاريخ أن الهجوم على المسلمين قد اشتد في عصره.

وقد أُكرِه المسلمون على التنصر، ويقول المؤرخ الكبير أرنولد Thomas Arnold في كتابه " دعوة الإسلام" The preaching of Islam، إن خمسين ألفا من المسلمين أكرهوا في سنة ١٨٨٠، على قبول العماد، ونشأ طبعا من هذا الضعف الديني، اشتداد العداوة الدينية، والجنسية، بين الحبش والمسلمين وهاجر عدد كبير من طريق القلابات فرارا بدينهم، وأصبح الإسلام خاليا في مدينة غوندار عام ١٨٨٣، وخاليا من سكانه، وهب

---

[1] الظل الأسود ص: ١٩

[2] دار الصراع بين الرؤوس والحكام خلال فترة ١٧٧٠– ١٨٧٠ على زعامة الحبشة. وفي عام ارتقي رأس تيجري عرش الحبشة باسم يوحنا الرابع، ولكن قوة منليك حاكم مقاطعة شوا أرغمت يوحنا الرابع علي مهادنته والتحالف معه على ان يخلفه على العرش. فلما قتل يوحنا الرابع اثناء اشتباكه بالمهديين أصبح العرش من نصيب منليك الذي كان ينتمي إلى احدى بنات النجاشي دأوود اي انه من سلالة الأسرة السليمانية الملكية. انه توفي عام ١٩٠٨، هيلاليسي و الحبشة، رأفت غنيمي الشيخ

سكان في الجهة الشرقية من مقاطعة "أمهرا" إلى الثورة فزحف إليهم النجاشي "يوحناس" ومنليك، ملك شوي سنة ١٨٨٦، وامعنا في النفوس قتلا، وذبحا، وفي البلاد تخريبا وجورا.[١]. وبقيادة منليك الإمبراطور، ضمت الممالك الإسلامية، ومنطقة "الأوجادين" الصومالية، التي توجد المسلمين فيها بكثافة، إلى الحبشة، وأعلنها "دولة مسيحية". كما ضم إمارة جما الإسلامية التي تقع في مناطق "اورمو" إلى الحبشة، وغيرها من الإمارات الإسلامية وحاول للإغارة عليها.

على الرغم من هذا، يعتبر عهده في تاريخ اثيوبيا، بداية العصر الحديث من استخدام الوسائط المتوفرة، مثل الإنفتاح إلى الحضارة الغربية والمحاولة لان يجعل اثيوبيا، مزدهرة، متوفرة للتطورات الحديثة من تقوية العساكر وتدريبها على نمط غربي بمساعدة المتخصصين في هذا الأمر، وإن الإغارات قادها كانت في التاريخ ضد قوة تهدم الإمبراطور "اثيوبيا".

ويقول صاحب كتاب تاريخ اثيوبيا "وفي سنة ١٩٠٦ مات الرأس ماكونين الذي كان الجميع ينظرون إليه كوارثٍ للعرش، بسبب أن منليك لم ينجب ولدا، فأخذت الأحوال تضطرب والأحزاب الطامعة في العرش تظهر، لا سيما وقد مرض الإمبراطور منليك في سنة ١٩٠٧، وبدا مرضه مميتا، فخاف منليك أن يُهْدَمَ البناءُ الذي تعب في إقامته، فعين حفيده ليدج اياسو، ليكون وارثا له، وعقد اجتماعا لرؤوس دولته والمطران المصري والإتشجي وقدم لهم حفيده، وكان فتى يافعا لا يتجاوز الحادية عشر من عمره، وقال لهم "لقد اخترت لكم حفيدي ليدج اياسو، ليكون خليفتي وأعهد به إليكم، وليكن محروما ذلك الذي يرفض طاعته، ملعونا ذلك الذي لا يخضع له، فليرزقه الله بكلب اسود ولدا له، وليكن هو أيضا أمينا لكم، أما إذا خانكم فلتحل عليه لعنة الله" وعين له رأس تساما معلما ووصيا.[٢]

---

[١] الإسلام والحبشة لاحمد يوسف ص: ٤٥

[٢] تاريخ اثيوبيا ص:١٣٠

إ ياسُو المسلم – ليجو إ يأسو– Joshua–Lij Iyasu

(الإمبراطور منذ ١٩١٣– ١٩١٦ م المولود سنة ١٨٩٧ وفاة ١٩٣٥م)

وقد تولى عرش الإمبراطورة الحبشية، مسلم نقيضا للعادات في المملكة يقول الاستاذ: يوسف أحمد، مفتش الآثار العربية سابقا ومدرس الخط الكوفي بمدرسة تحسين الخط الملكية في كتابه "الإسلام في الحبشة" الفوضى الدينية، بالغة في حدها. وملوك الحبشة يكرهون إقامة شعائر المسلمين الدينية. ويظهر ذلك جليا، واضحا، من قصة الرأس ميخائيل، وولده النجاشي، ليدج إياسو، فقد كان الشاب "محمد علي" المسلم من رؤوس قبيلة "ولوغالا"، فأعجب به النجاشي "منليك" فحمله على التنصر، فارتد، بلا تردد. وتسمى بالرأس "ميخائيل" وتزوج إحدى بنات منليك، فولدت له ولدا، تسمى "ليدج اياسو" فأحبه جده، وقدمه، وجعله إرث عرشه، ولما مات النجاشي "منليك" في سنة، ١٣٣١هـ الموافق سنة ١٩١٣م، ارتقى عرش الحبشة، ليدج اياسو، فاظهر ميلا، وعطفا على المسلمين، كأنما عرف أن أباه كان مسلما. ويظن الكثيرون أن ليدج اياسو، قد أسلم، لما كان يظهره من المحبة، والعطف على المسلمين، على عكس ما كان يفعله ملوك الحبشة. ولما تأججت نيران الحرب الكبرى، امتلأت ممالك الدنيا، بالجواسيس وكان في الحبشة بعض الالمان، والترك، وشجعوا اياسو، وحسنوا له تأسيس "امبراطورية إسلامية في إفريقيا الشرقية". وفعلا، أخذ يهتم بهذه الأُمنية. فلما علم رجال الاكليروس، والرؤساء الأقباط بذلك، اضطربوا، وخافوا العاقبة، واتفقوا مع "المطران "والرأس" تفري" وعقدوا اجتماعا، في "اديس ابابا". وخلعوه، وانزلوه عن "اثيوبيا" سنة ١٣٣٤ هـ، الموافق سنة ٢٧ سبتمبر ١٩١٦، ونادوا بالأميرة "زوديتو" إبنة "منليك" امبراطورة على الحبشة، على أن يخلفها "الرأس تفري" ابن "الرأس ماكونين" على العرش. وفي سنة ١٣٤٩ هـ الموافق سنة ١٩٣٠، توفيت الإمبراطورة زوديتو، فنودي بـ"الرأس تفري" إمبراطورا للحبشة، وسمي "هيلاليسي". أما ليدج اياسو، فقبض عليه، وأودع السجن، سنة ١٣٤٠ هـ، الموافق ١٩٢١، ثم تمكن من الفرار، من السجن ١٣٥١، ١٩٣٢، ولكن قبض عليه ثانية. والقي

في إحدى قمم "هرر" في سجن منفرد. واشيع بعد ذلك أنه مات. وذكر الأب "ميتاؤس" في رسالة نشرها، بمناسبة خلع " ليدج اياسو"، واعتقاله، حمل فيها على ليدج المذكور حملات شديدة، قال فيها "إن هذا النجاشي لم يكفه أنه جحد إيمانه المسيحي (مما يدل أنه اعتنق الإسلام) بل رضي أن يشيد لهم، أي للمسلمين، جامعا في "دير داوة" اهـ. [1] ويقول صاحب كتاب تاريخ اثيوبيا "ولم يلبث أن انطلقت غرائز الإمبراطور الجديد دون قيد، إذ انصرف إلى ملاهيه يرتشفها أينما كانت، فقتل بيده ذات ليلة أحد الجنود في أديس ابابا، حين تعرض له، بل تحول عن الديانة المصرية وأعلن أنه ليس سليل سليمان ولا ملكة سبأ، بل اخترع لنفسه نسبا يعود به إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وترك زوجته رمانا، وتزوج بأخرى مسلمة، وجعل من المسلمين حاشية له، وصار يتردد على الجوامع ليصلي فيها وأمر المسلمين في هرر أن يستولوا على ما يشاءون من أملاك المسيحيين وكنائسهم، فكانت من أثر ذلك أن قامت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين واعتدى على بعض المسيحيين. وقبضت السلطات على بعض المسلمين المعتدين لمحاكمتهم وأرسلوا إلى اديس ابابا، لهذا الغرض، فعفا عنهم ومنحهم الألقاب، وأصر على أن تكتب الشهادتان على العلم الأثيوبي، بحروف حبشية، وأهدى العلم إلى قنصل تركيا، فأرسله إلى استنبول وذكر أن اثيوبيا، قد أصبحت تابعة لأمير المؤمنين، مما سبب الإرتباك للقناصل الآخرين وأبرقوا بالأمر إلى حكوماتهم، وكان ذلك في بداية سنة ١٩١٤، والأمور مضطربة في أوربا تنذر بقيام الحرب العالمية الأولى وقد خاف المطران ورجال الدين الذين رأوا هذه الأعمال خروجا على المبادئ المسيحية. والإمبراطور بحكم منصبه يعد الحارس الأمين على تراثها في أثيوبيا. وكان المطران هو "انبا ميتأوس" الذي اشترك مع جده منليك في توطيد أركان هذه الإمبراطورية، وكان رجل الورع والتدين ولكنه في الوقت نفسه رجل القوة والحزم "[2]

---

[1] الإسلام في الحبشة لاحمد يوسف ص: ٥٦-٥٧

[2] تاريخ اثيوبيا لزاهر رياض ص: ١٣١

الإمبراطور اياسو في الرواية

اياسو، في الرواية، هو الشخصية الأولى. تبدأ به، وتنتهى به، تدور حول وجدانياته، وأعماله البطولية، من رفض مؤسسة كبرى وزعمائها، "لا... لن أقابل الأنباميتاوس"[1] إلى اختيار طريق لنفسه، ولشعبه. ظهوره في الرواية بعد أن أصبح امبراطورا شرعيا للاثيوبيا، كئيبا، ثقيل الفكر، شحوبا، يطول عنده التأمل، ينفر "القساوسة على نفاقهم والتظاهر بنعراتهم البراقة " إن عيونهم تبرق بالشر، وهم يتحدثون عن الرحمة، ويطنبون في الكلام، عن الإستقامة، والخلق القويم، مع أن رائحة الخمر تفوح من أفواههم، ولا يفتأون يرددون عبارات الأخوة، والتسامح، وبركات الله، وتاريخهم كله آثام سود، ومجون عربدة، ومشاجرات بين بعضهم بعضا...."[2]، إن الحوار المثير في بداية الرواية مع أبيه، محمد على الذي غير إسمه، إلى ميخائيل، والذي كان يحجب إعجابه بالإسلام، واعتزازه به، وتنافره بالمنافقين وقال "أنا مثلك، أكره هؤلاء الأوغاد....وما أروع ذلك الإسم القديم "محمد علي" أيام كنت أحكم مقاطعة "وللو" لكن علي أن احتفظ بإسمي الجديد حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا...."، ومونولوج اياسو، عندما يلتقي مع "الأب المقدس" واسترجاع ذكرياته عن جده الراحل "الإمبراطور منليك الذي تصب البركات عليه. وهو وسط الضعوط النفسية الشديدة، تحيطه شعائر، وتهاريج مسيحية براقة، منافقة. وتصدمه كلمة الأب "إن بعض الإمارات الإسلامية، قد رفعت رأسها من جديد، وبعض القبائل الوثنية، في الجنوب اعتنقت الإسلام". وإنه يرى بأم عينيه تلك المؤامرات، التى تجري في "غرفة الإمبراطور". وهو دائما يفكر عن طريق سلمي يوافق المسلم والمسيحي، وغير سبيل الحرب. ويشعر له "ان هذا التاج ثقيل، يا أبتي، أولئك المتعصبون يريدون أن يسوقونا إلى الجحيم، مستحيل... إنهم يكرهون الإنسان، ويمقتون حرية البشر"،[3] وهذه الفكرة العارمة تنغص صفاء حياته طول العمر، إلا أنها تزيد طالما يفكر عن حماقات البطارقة، وتعصبية المسيحين الذين زخرت

---

[1] الظل الأسود ص: ٥

[2] المصدر السابق ص: ٥

[3] الظل الأسود ص: ١٠

قلوبهم، بحقد المسلمين بأن رجال الدين علمهم به، يملأ في قلبه التوتر، وهو يعرف عن نبي هذا الشعب المظلم، محمد صلى الله عليه وسلم، من أبيه المتنصر، الراعي والحنون، الذي لم يكره أحدا إلى الإسلام إلا بحريته. ونطق بالشهادتين، أمام أبيه. وقد ساد في جو الأسرة، شحبة لا تطاق، لأن تركيب أسرة اياسو، معقدة للغاية، وخليطة بالمتناقضات، تنصحه أبوه بنصائح ناضجة، بالوقاية التامة، عن العواقب، وأن لا يعلن إسلامه ولا يخالف أربابه. تحذره أمه وزوجته على ترك التعاطف بالمسلمين والحماية بالملكية العزيزة. وهو لا يستعذب مغازلات زوجته المسيحية. *"أي اياسو،أانا زوجتك، فحرام عليكأان تخفي عني شيئا، هل حدث ما يبغضنيإليك ؟ تكلم بحق السماء،أانني على استعداد، لأن أفعل ما تأمرني به حتى تنجاب هذه الغمة"*[1]، وفي تواصل الكلام، يفهم أن زوجتها ليس على طريقه الذي يختاره، بل في طريق الكنيسة البغيضة، والمسلمون عندها أنجاس، ليسوا بشرا، إن المناظرة الطويلة بينه وبين زوجتها عن المسلمين وموقف الكنيسة منهم، التي قال فيه *أنني ملك على الجميع يازوجتي ويجب أن أنشر العدل بينه وبين الرعية كافرهم ومؤمنهم، فقيرهم وغنيهم، هذا كل ما في الأرض"*[2]، أدت إلى الطلاق المبرم لزوجته المسيحية، بعد أن وجد منها إنتهاكا لحرمة زوجها بما كانت تفشي سره أمام ميتاوس القديس، وزواج امرأة مسلمة، بنت محمد عبد الله، أمير هرر، وبهذا الحساب نفسه أنه يكره، تفري "هيلاليسي" ورفضه لتزويج أخته به، ولا يحب إنتماءه إلى الإمبراطور "منليك"، رغما من مكانته لدى المسيحيين.

تقصيا للشخصية الوادعة أيام طفولة اياسو، يرى فيه لينا وحلما، ولا يحب القسوة منذ نعومة أظفاره، وكراهيته لتفري وذلك لما رأى فيه الغطرسة، والتجمد الفكري، وعدم التسامح، " *وكان اياسو، في نظر تفري شاعرا، حالما، وتؤثر فيه الأحداث الصغيرة، يطيل التأمل ويحلق بروحه إلى بعيد، ويكتظ عقله بالأمنيات، يفلسف ضعف الآخرين، ويلتمس*

---

[1] المصدر السابق ص: ١٤

[2] المصدر السابق ص:١٧

لهم الأعذار، لا يقبل الدنيا على علاتها، ثائرا دائما، يرى كل شيء ناقصا، ولا يبدو له الكمال إلا في عالم المثال، ليست هناك حدود فاصلة بين القيم المتضاربة، أن هناك نوعا من الإمتزاج، فليس هناك شر محض، ولا خير محض إلا في عالم الأبالسة والملائكة... يقضي أوقاتا طويلة في التفكير بتعاسة الآخرين، حانق دائما، قلق دائما، فيبحث عن الصورة المثلى فلا يجدها...."[1]

نقطة التحول الهامة، في حياته الملكية تحدث في اختياره الجولة، الطويلة، والبلاد على وشك الحرب المتوقعة من قبل القوات العالمية، "*يجوب فيها أنحاء البلاد، حتى يعرف عن كثب قضاياهم، ومشاكلهم والطاقات الكامنة فيهم، ويلتقي بهم دون حجاب، ويحادث شيوخهم وشبابهم، مسلمهم ومسيحهم، ويمهد للإجراء الحاسم الذي سيتخذه*" [2]. أثناء جولته قام بتنوية الحب والمساواة، وسمح للمسلمين لبناء المساجد والمدارس التعليمية، فهتفوا له "عاش الإمبراطور... اياسو..."، وأعلن أمام الحشود الهاتفة إسلامه، وقد قلب الأمر ضده، وقد شاع أمره في مساندته لتركيا، وحميته الإسلامية، بحيث كان يحمل لواء يحمل " لا إله إلا الله محمد رسول الله". فمكانة اياسو، عالية، عند المساكين والمسلمين المستضعفين، وعند "الأب وتفري وزعماء آخرين مسيحين مترددية، فهو "رجل مريض"[3] ولعنة هبطت من السماء. إن الأفكار عن السياسية المتضاربة، ومصيرية المسلمين في البلاد يجعله يقع بين المطرقة والسندان فيما يسبق به،

"*وظل اياسو، يفكر فيما قاله أبوه، لبضع ليال. يفكر في احتمال هزيمة تركيا، وما قد يجره عليه من مشاكل سياسية، واجتماعية، وعنصرية، ويفكر فيما يصر عليه ذوو الرأي من امته، وما تعتنقه الكنيسة، من ضرورة مناصرة الحلفاء. ويفكر في المحادثات التي تجري بينه وبين قنصل تركيا، وقناصل فرنسا وانجلترا وايطاليا، إن بعد النظر السياسي يكاد يوقفه عن التحرك، لمساعدة تركيا، وحرصه على عدم التفريط، في ثروة وطنه، وأفراد شعبه،*

---

[1] الظل الأسود ص:٢٧

[2] المصدر السابق ص: ٢٥

[3] المصدر السابق ص:٦٠،٦١

وأحقاد الكنيسة، كل ذلك يجعله يفكر الف مرة، قبل أن يقدم على هذه الخطوة الحاسمة....إنه يرى معركة بين الحق والباطل، بين الصليبية المتخفية والإسلام المفترى عليه، ولا ينفي هذا التصور وقوف المانيا إلى جانب تركيا، فالمانيا لا تختلف مطامعهما عن مطامع انجلترا، لكنه عند النصر فستكون تركيا منتصرة والمانيا منتصرة... ومن ثم فستكون الفدية متوفرة، ولن تخسر تركيا المسلمة المنتصرة مثلما تخسر تركيا المسلمة المنهزمة... لشد ما يكره اياسو الحياد في مثل هذه الامور...إن عليه أن يختار بين الحق والباطل، بين منطق الكسب والخسارة، ومنطق المثل العليا، لهذا قرر اياسو، أن يمضي في الطريق دون أن يتراجع.... لسوف يذهب إلى الجنوب ليعد العدة، لمساعدة تركيا، لسوف يحسم الأمور كما يحلو له دائما، بطريقة واضحة، لا غموض فيها، فغالبية الشعب تؤيده، وعاطفيته الدينية تدفعه إلى ذلك..[1].

وقد اشتد إيمان اياسو، بالإسلام والرسول لما يجد من زوجته الجديدة، بنت أمير هرر، أقوال تتبع بالإيمان الصادق، وتعاظم عنده أمر المؤمنين وشعارهم. إنه لم يستسلم، وهو في الجنوب لأي قوة، لأجل السلطة والحكم. لكن بعد محاولات الرد، على قوات تفري التي لم تفلح، سجن إياسو، وأصدر تفري أمره " خذوه إلى السجن، يجب أن تحيطوا بالحراسة المشددة.."[2]، وظل في السجن سنوات طويلة، ولقد خفت صوت إياسو خلف أسوار السجن العتيد عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٠، ولوكان إياسو مؤبدا بالسجن كانت إرادة الشعب معه، بحيث كره "غوسا" زوج الإمبراطورة زوديتو، أن تكون زوجتها لعبة في يد تفري، فنادى هو لرجوع اياسو، إلى سدة الحكم، وأثار مشاعر الناس، ولكن لم ينجح، حتى أدت إرادة الشعب أن يخرجوه من السجن وفر به، " *ولما بلغ الرجال مأمنهم، وأماطوا اللثام من براثن الوحش الآدمي...نحن نفكر وندبر منذ سنوات....ان الرجل الذي احب شعبه واحبه شعبه، لا يصح ان يبقى خلف القضبان، رهينة في يد الشيطان.... نحن رجالك يا*

---

[1] المصدر السابق ص: ٧٥

[2] الظل الأسود ص: ١٣٠

اياسو....الحبيب...."[1]. وسجن اياسو مرة ثانية، في حصن "غرامولينا" وهو يستمع إلى الهتافات المتصاعدة المصممة الآذان "اياسو....اياسو.."[2] وهو ينتقل إلى رحمة الله قبل أن يتعرض لقسوة الحكام المسيحية.

"الإمبراطور هيلاليسي"[3] أو "الرأس تفري"

الرأس تفري أو الإمبراطور هيلاليسي، في الرواية ظالم، مكار، معاند، لا يعرف الرحمة واللين طريقها إليه، المسمى فيها "الظل الأسود"، مشاكلة بـ"ظل الله على الأرض"[4]، حاكم مقاطعة "سيدامو"، وهو صهر الإمبراطور اياسو المسلم،[5] الذي زوج من أخته ابنة محمد علي أمير "وللو"، مالفن على الرغم من قلة الرضا، لأبيه وابنه اياسو، وحتى لمالفن، حفيدة منليك الإمبراطور السابق، وذلك بحسب عرف البلد الإمبراطوري، بأن تكون المصاهرة بينهم، لحماية النسب الملكية والعرقية. أما شخصية الرأس تفري تظهر بجلي، خلال ما يضمر عنه في القلوب من الإنطباعات. وقد نجح الروائي في تقديمه حسب ما يراه، بأفعاله القاسية، وبطره الشرس، ومعاملته مع الناس، واحتياله بالمكر، للحصول على ما يغريه من شيء، حتى عند زوجته مالفن، كان ذي قسوة، ولا حرمة عنده لصلة الرحم، والعلاقات الودية. إن نجيب الكيلاني قد أبرز عن عيبه الفكري وتجسسه المشين، بلسان زوجته التي لم تحبه قط، بل أصبحت بعيدة عنه طول حياتها قلبا، مع علمه بأن استخدامها وسيلة من أبلغ الوسائل للتفشي عن شخصيته، لما لها من معرفة تامة عن

---

[1] المصدر السابق ص١٤٦

[2] المصدر السابق ص:١٥٠

[3] هيلاليسي معناه قوة الثالوث مولده عام ١٨٩١ ابن الرأس ماكونين حاكم هرر، هيلاليس والحبشة.تاريخ اثيوبيا ص: ١٣٨

[4] وقد كان المسيحيون يؤمنون ذلك الوقت في الملوك (النجاشي) انهم ظل الله على الأرض، ومسئولون لتنفيذ " الارادة الالهية".

[5] وقد قيل ان زوجة هيلاليسيي اسمها وازيرومانين فكانت حفيدة للملك ميخائيل حاكم وللو وعلى هذا فهي ذات صلة بليج يسوع الملك المخلوع – هيلاليسي والحبشة، رأفت غنيمي الشيخ

سلوكه وعاداته، ومكامن قلبه. يقول الكيلاني "*كان تفري يبدو في نظر اياسو، وكانه رجل من رجال الأعمال الجامدين، لا يفكر إلا في الربح والخسارة، ولا يقيس الأمور إلا بمقاييس ذاتية، ضيقة. كان غبيا، وإن كان خبيثا دؤوبا، وكان قاسيا فظا، وإن تظاهر بالرحمة، والرقة، وكانت الكلمات بالنسبة له، لا تحمل سوى أكثر من معنى واحد، هناك وباطل ولا شيء بينهما، ورأيه نهائي ولوجانبه الصواب، فلسفته العنف والقوة والبطش الحاسم، يتحدث كثيرا عن السماء وأفكاره ملتصقة بالأرض الموحلة، ويثني على القساوسة والرهبان ولكنه يحتقرهم، وينحني لهم، لا احتراما ولا تقديسا ولكن ليبعث بنظراته الحادة باحثا عن منفذ إلى نفوسهم وقلوبهم، يحترم المستعمرين الغربيين لأنه يؤمن بالقوة ويقدسها، ويجعلها فوق المبدإ والعدالة، يشك في أقرب المقربين إليه، ثقيل الظل حتى على أصدقائه...*"[1]

هذا هو تفري في شخصيته في الرواية، إلا أنها تزداد صلابتها حينما تصتدم بالتجارب، مع المسلمين بوجه خاص. إنه يحتفظ بعلاقة وثيقة مع "الأب المقدس"، ويرسل رسالة إليه في أمر" اياسو" المشكك، على دينه، وتدبره لنصرة الأتراك، ويثير ضده غضب رجال الدين. قال فيها "*.... وهل نسيت أنه كتب على علم الدولة عبارة "لا إله الا الله، محمد رسول الله" ؟ وهل نسيت أنه قدم ذلك العلم هدية لقنصل تركيا، في اديس ابابا؟ أنه يتصور ان تركيا تخوض حربا مقدسة ضد الصليبية، في أوربا بصرف النظر عن الإعتبارات الأخرى، ونسي هذا الإمبراطور الأبله، إن تركيا في الماضي قد اكتسحت شرق أوربا، ونشر الإسلام في ربوعها، وقد حان الأوان أن نتخلص من هذه الإمبراطورية التركية العنيدة العتيدة*....الخ[2]. وبسبب التدخلات المتوالية، وثقة القديس به، يتم عزل اياسو، من عرشه. "وأملنا كبير في الرأس تفري أنه صهر الإمبراطور اياسو، لكن تفري على استعداد، لأن يشنق أباه إذا خان السيد المسيح"[3] منافق إلى حد أن.."حرص تفري على أن يشيع في جميع الأنحاء، أنه أتى لإعلان ولائه للإمبراطور، وعلى الرغم من أن تلك الأنباء، قد

---

[1] الظل الأسود ص: ٢٧

[2] المصدر السابق ص:٦٠

[3] المصدر السابق ص: ٤٥

أقلقت رجال الكنيسة وسدنتها، إلا أن ميتاوس ابتسم في خبث وقال "أيها الداهية تفري، لا شك أنك رجل الأقدار المرتقب...إن عقلك الخبيث يستطيع أن يمسك بزمام الأمور في الحبشة لعشرات السنين، لقد رضيت عنك الكنيسة ورضي عنك الحلفاء الغربيون...وهذا كسب لنصف المعركة مع ذلك الساذج الأبله اياسو..."[1] متحينا للفرصة، للتعالى على سدة الحكم، قال ميتاوس: يقتضي تعيين امبراطورا آخر، له صفة شرعية، "اذن أنت تعترض على تعييني امبراطورا"

"..... إن الإنجليز موافقون على عزل اياسو، لكنهم لم يوافقوا بعد على تنصيبك امبراطورا..... زمجر تفري قائلا... إنني على استعداد لأن أتلف كل شيء الآن..."[2]

وهو قائد الجيش العام الظالم، عميل الكنيسة، ربيب الإستعمار، ومستنقع الحقد والخيانة،[3] ومسيحي متحمس "قال تفري" إن بلادنا مسيحية، وستظل مسيحية للأبد"[4] وقاتل جزار "وأصدر تفري أوامره للجنود في كل مكان: يجب أن تحصدوا هذه التجمعات الشعبية بمدافعكم نكلوا بها أسوأ تنكيل، لا تأخذكم بهم رحمة ولا شفقة فالتحرقوا القرى الثائرة عن آخرها.... ولا ترحموا شيخا أو طفلا أو امرأة .... يجب أن تنفذوا هذه الأوامر بحذافيرها عن إيمان عميق، لكي تحفظوا وحدة الشعب وحريته واستقلاله..... سيروا على بركة الله أيها الرجال الشجعان والنصر لنا"[5]

ولا تحبه زوجته، مالفن، "ضحك تفري ضحكة وقورة وقال "بل إنها ميزة، وفائدة كبرى، أكان يمكن أن أدخل قصره وأجوس خلاله، كفرد من أفراد الأسرة، وارصد له العيون، إن لم أكن زوج مالفن، ثم من تكون مالفن ؟ إنها مجرد وسيلة، تؤدي دورها المرسوم منذ زمن بعيد دون زوج أخته... سيدي المطران أن مالفن لا شيء." وأبو زوجته محمد على

---

[1] الظل الأسود ص:٥٠

[2] المصدر السابق ص ٩٢

[3] المصدر السابق ص:٩٧

[4] المصدر السابق ص:٩٩

[5] المصدر السابق ص:١٠٤

وصهره اياسو، وزوديتو الإمبراطورة بنت ملنيك، وزوجها غوغسا، وكان يتدخل في تصرفات زوديتو، الملكة.

ولكن هيلاليسي في التاريخ، تظهر بوجهين مختلفين: وجه البسالة، ورمزا للقوة، والنهضة الحقيقية لأثيوبيا الراهنة وبانيها، وأقوى الملوك الإمبراطوية لأثيوبيا. "ولم تحل هذه الأزمة المحدودة، دون أن يسعى الرأس تفري لتنفيذ برنامجه الإصلاحي، فعمل على إدخال اثيوبيا في عصبة الأمم، فسعى أولا إلى كسب جبهة تؤيده في هذا السعي، ثم إلى إصلاح الاحوال الداخلية، بحيث لا تكون مانعة من هذا القبول، فأصدر القوانين بتحرير العبيد وإلغاء تجارة الرق، وسعى إلى القضاء على الجلابين، ولم يتردد في استعمال الجيش من أجل تأمين الطرق والقضاء على الشفتا، وعصابات قطاع الطريق.[1] وهو وإن كان يحمل في جنباته برنامجا ثوريا، يؤدي إلى انتقال بلاده إلى مصاف الدول المتمدنة، إلا أنه اثر أن يراعي الظروف التى تجتازها البلاد، وآثر أن يكون برنامجه مدروسا دراسة كافية، فقام بعدة زيارات لمصر والدول الأوروبية، بغرض تعريف البلاد، هذه الدول ببلاده.[2]، وبدأت كثيرا من مشروعات التطور للبلاد، واتفاقيات ثنائية ذات اهمية اقتصادية، واجتماعية. أن الهروب الذي أشار إليه في الرواية، تقرأ في التاريخ، نوعا من الحيلة المدروسة، ليستعيد القوة الكافية، ثم الرجوع إلى البلاد، لينفذ قوته ويخرج المحتل. وإنه أعلن حكما دستوريا للبلاد. وهذا هو التاريخ الرسمي. وقد ظهرت بعض السجلات التاريخية التي تبرز عن مظالم "هيلاليسي" ومبادراته الهجومية ضدهم عن قصد. وترى أن فترة هيلاليسي كانت من أحلك فترات المسلمين في اثيوبيا وأشدها مأساوية ودموية. "وقد يقول الدكتور مجدي الداغر[3]، "أطلق هيلاليسي على نفسه لقب أسد يهودا، أو سبط يهودا. وما شهده الإسلام والمسلمون في عهد هيلاليسي الذي بدأ في الثاني نوفمبر سنة (١٩٣٠) واستمر حتى سنة

---

[1] تاريخ اثيوبيا ص: ١٣٤

[2] المصدر السابق ص: ١٣٨

[3] " بعد توغل الجيش الاثيوبي في الصومال ماذا عن وضع الاقليات الإسلامية في بلاد النجاشي د. مجدي داغر

(١٩٧٤) يفوق ماشهده المسلمون طوال تاريخهم في اثيوبيا من الألم والمحن ولم يخفف من هذه الآلام والمحن إلا الفترة التى طرد فيها، هذا الطاغية، من البلاد بين (١٩٣٦-١٩٤١) إلا أنه عندما استولت إيطاليا على اثيوبيا خلال هذه الفترة ظهرت المساجد، من جديد، وقامت الحكومة الإيطالية بالسماح بتعيين القضاة الشرعيين، وأدخلت تدريس اللغة العربية في مدارس المسلمين، كما ساهمت في إنشاء كلية دار العلوم الإسلامية، ولكن أمام التطورات الحرب العالمية الثانية وهزيمة ايطاليا، عاد هيلاليسي ثانية إلى الحكم بدعم من بريطانيا، والدول الغربية المسيحية في سنة ١٩٤١" وقد اقتصر سياسته ضد المسلمين، على أن نهضة المسلمين كانت تعد من أكبر التحديات في اثيوبيا.

ولتحقيق الأهداف التي أعلنها هيلاليسي صراحة، قام على:

١. حرمان المسلمين من التعليم وتلقي الثقافة الإسلامية واللغة العربية باعتباره لغة القرآن، الذي يحث المسلمين على كراهية اليهود والنصارى.

٢. مصادرة أموال المسلمين وأملاكهم بهدف إفقارهم، وإجبارهم على الهجرة خارج الأراضي الإثيوبية.

٣. هدم ما تبقى من مساجد المسلمين، وإقامة الكنائس على أنقاضها، ومنع تداول القرآن الكريم في الكتاتيب والمدارس الإسلامية.

٤. تنصير أبناء المسلمين بالقوة ونشر الهيئات التبشيرية في جميع المناطق الإسلامية وفرصة تقديم العون المإلى لها على المسليمن.

٥. إبتلاع معاقل الإسلام المحيطة بالحبشة لسد الطريق أمام أية عملية إنقاذ لمسلمي الحبشة، من السودان وايرتيريا، قتل المسلمين في مجازر جماعية بحجة العصيان ضد الدولة.

٦. الحيلولة دون اتصال المسلمين من الخارج بمسلمي الحبشة، ومنع زيارة البيت الحرام، والحرمان القيادات الرئيسية والمناصب العليا.

٧. فرض الضرائب الباهظة على المسلمين والسماح للكنيسة بالتسلط على أموال المسلمين ومصادرتها. [١]

وفي عام ١٩٧٤ قد اطاحت به ثورة عسكرية اتخذت مسار الشيوعية، الذي كان يتجه إلى سياسة الاتحاد السوفيتي على النقيض من السياسة التي كان عليها هيلاليسي، المنوال الذي يتجه إلى انجلترا وفرنسا، وأزيح من مكانه، وفي عام ١٩٧٥ أنه مات على أحوال غامضة.

الشخصية الأنثوية في رواية الظل الأسود

تلعب الشخصية الأنثوية في رواية الظل الأسود، دورا مهما، في تعيين إتجاه الرواية، ولو كانت تابعة للشخصيات الذكورية الرئيسية. تظهر زمزا للجانبين الأساسين للرواية من الخير والشر، من حيث انهما قويين للغاية. أما الشخصية الأنثوية التي رسمت فلم تقتصر في أداء الخير والشر، وإبقاء القصة في تشويقها وقلقها إلى النهاية، وجعل أسرة محمد علي، المزدوجة من الإسلام والمسيحية في ذروة الضعط والتوتر فحسب، بل قام الكيلاني بإتيانها، في أدوار مختلفة إما وزوجة واختا وزوجة مطلقة وامبراطورة. إن الشخصية الأنثوية تشعر بنفس الوجدانيات المتناقضة، التى تتراوح بين الشخصيات الرئيسية، التى تتضح ذلك من حوارات الشخصيات الأنثوية. على الرغم من قوتها وثباتها في إيمانها الإسلامي، أو المسيحى التى تجعلها من أقوى الرموز النسائية، إلا أنها تتمثل مسيرتين متضادين تماما من الحق والباطل وتقتصر، في أدوار داخلية من إذكاء الروح الطائفية الممقوتة، في أذهان الرجال، أو تشحيذ الحماسة الإيمانية بحوارات مؤثرة.

---

[١] ولمزيد من المعلومات انظر مقالات " الأحباش وعدائهم للإسلام" (أثيوبيا) http: www. Arabic.military.comتقرير " مفتي اثيوبيا يناشد الدول الإسلامية تقديم الدعم لمقأومة حملات التنصير تقرير مجلة المجتمع العدد ١٧٤٦، تاريخ العدد ٠٧/ ٠٤/ ٢٠٠٧ ومقال: حملات التنصير والمعاناة في اثيوبيا، موقع طريق الايمان. www.imanway.com. وكتاب " رحلة الحبشة" والإسلام في الحبشة

ومن الجدير بالذكر، إن الإشارات في الرواية عن الشخصيات النسائية، في التاريخ عابرة، جدا دون التعرض إلى أعمالها وتدخلاتها السياسية، إلا أن نجيب الكيلاني أعطى لها، من عنده، ما يصلح لها وفق الأحوال التي كن يتعاملن معها، فلا يمكن هنا الإستعراض بما في التاريخ، سوى الإقتصار بما في الرواية.

زوديتو الإمبراطورة:

إن ملكة زوديتو، ابنة الملك منليك، التي تولت العرش بعد عزل اياسو، من الحكم عام ١٩١٦، وهي في الرواية تأتي للتعبير عن الصراع بينها وبين تفري وصيه، وكان "غوغسا" زوجها حملها على الثورة ضده، لأنها تحت تصرف تفري، القائد العام للجيش، ولكنها تخاف الفتنة ولا ترجو الفوز عليه. أما كراهيتها لتفري واضحة من التاريخ، لأن تفري كان يجبرها لتلعنه وصيا لها بعدها.

"وكان النزاع بين الإمبراطورة والوصي على العرش في عام ١٩٢٨، وقد أصبح خطيرا بدرجة كافية ليحدث التفكير لبرهة ان العداء يمكن أن ينفجر بين الطرفين ولكن حل المشكلة كان سلميا ورائعا وفي حوالى ٢٦، سبتمبر خلعت الإمبراطورة على الرأس تفري لقب ملك (نجاشي) وتوج ملكا، في السابع من اكتوبر، وأصبحت وفاتها في أول ابريل ١٩٣٠."[١]

شوارقاش بنت منليك الإمبراطور، زوجة محمد على (ميكائيل)، مسيحية متدينة، لا تحب أحدا يتكلم عن أخطاء أبيها، والإعتراض على موضوعية الواقع المر، بل تعتبر كله اجتراء على هجوم المقدسات،

[١] هيلاليسي والحبشة، رأفت غنيمي الشيخ

"فدفعته (اياسو) في حنان قائلة "كيف تتكلم عن أخطاء جدك ؟ أكانت له أخطاء....لقد عاش طور عمره خادما لله، راعيا للكنيسة، يقضي أبهج أوقاته في ميادين القتال حتى أقام لك ذلك المجد الضخم."[1]

مالفن، زوجة الرأس تفري، كانت حنونا لاياسو، أخيه، وكارهة لزوجته تفري "على سوء معاملته الاسرية، والإجتماعية، وكانت خاسرة في الحياة الأسرية، تعسة الحظ، لأن الزوج في خيالها، كان ما هو غير تفري: لأنه قاس، مظهر خلاف ما يبطن، قلبه مفعم بالأحقاد وهو يضحك، محتال حتى لأقرب أصدقائه، يأخذ حريتها بالمرح والمداعبة، والوقار الغبي، والتعالى الأجوف، وعلى كل أنه خال من كل الصلاحيات الزوج الحبيب، كانت تشعره كابوسا ثقيلا، وان أتعس لحظاتها هي الأوقات التي تقضيها إلى جواره، الوجه الأسود المتصلب، يثير لديها الكراهية، وانه ليس إنسانا باية حال من الأحوال، تم زواجها بتفري، لأنها حفيدة منليك الإمبراطور العظيم، وشقيقة الإمبراطور اياسو، مجرد صفقة رابحة من وجهة نظره، كما يفعل التجار ورجال الأعمال. إن جميع نفسيات مالفن المؤمنة، تظهر مع حواراتها البالغة الرشد مع اياسو، تحبه ويحبها ومع تفري: كما هي تنبه تفري

"انك زوجي يا تفري، واياسو اخي، ان الصراع بينكما صراع إخوة مهما كان الأمر، ولن يبلغ مرحلة التصفية الخشنة" "[2]

إن رسم الكيلاني لها، أكثر من مرة، وهي تحنو إلى اياسو، أخيه وتطمئن إليه، وتبكى لأجله، وتسترجع دماثته، وعندما كان تفري، يريد الخروج عليه كانت تبرده، بكل مالديها من قوة الأنثوية، الجاذبة. ولم تكن هى تلك النار التي تذيب الأحجار الصماء.

الزوجة الأولى المسيحية لإياسو، غير مسماة في الرواية، الفاتنة السمراء، مسيحية، متعصبة، وهي لا تعرف في بداية القصة، عن مكنونات زوجها، بل تحققت شيئا ما من

---

[1] الظل الأسود، ص:٢٣

[2] المصدر السابق ص١٢١

قلة الرضا في وجهه وفقدان سيطرتها عليه، لتجعله في موضع الشك "فهل يستبعد أن اياسو فريسة لإمرأة لعوب ؟ ترى من تكون هذه المرأة ؟....إنها انثى قبل كل شيء.."[١]، لا تتسامح مع المسلمين بوجه ما، لكن تحرضه ضدهم، وتبرر بالكنيسة مكائد آبائهم، وقساوسهم. ولكن تفلت "اركان الكرسي" من زوجها شيء يجلب لها مذلة وهوان في عيون الناس. إنها سافلة، ملعونة، غبية، عند زوجه اياسو، لا تسوقها المبادئ والقيم، بل أغراض ذاتية مستقلة. لأن الشر يطير من عينيها، ذات مرة، حينما رجع من الجولة وعلى غرة، كانت في الكنيسة مع انباميتأوس، تجسس عن أموره، وأسراره، وميلانه للمسلمين في البلاد. فطلقها زوجه على الرغم من جمالها. ولكن الطلاق يصدمها بصدمة كبيرة، لأن إياسو، كان لها زوجا كريما، انبهرت بحسن أخلاقه. فتستلم بأخطاءها عند إياسو كما هي عند المطران ميتاوس.

" أنت طالق...."

صرخت كالجنونة...مستحيل.... مستحيل... اياسو، ملعون هذا المدعو ميتاوس، ملعون كل شيء... انني أريدك انت.. أنت حياتي وجنتي وروحي... اياسو...اياسو..."[٢] وهذه الزوجة المشير اليها هي: رمانة حفيدة الملك يوحنا، ولم يكن سنها يزيد عن سبعة أعوام [٣]

الزوجة الثانية المسلمة:

قال اياسو لزوجته الجديدة، ما هي أعظم امنية لأحققها لك...؟

قالت في خفر وحياء... " أن أراك مؤمنا راضيا.." – امرأة في عز شبابها تتحدث كالمتصوفين...." [٤] مسلمة وهي بنت امير هرر، ذات ايمان ودين، تخلص بالمسلمين والشعب المظلوم، يجد اياسو فيها ضالته، وسعادته بها فوق التصور، وهي بنت الأحداث

---

[١] الظل الأسود ص١٣

[٢] المصدر السابق ص ٥٨

[٣] تاريخ اثيوبيا ص:١٣٠

[٤] الظل الأسود ص ٧١

العاصفة، لانها وتقف بجانبه بمواقف تتم بالإيمان الصادق والزوجة الصالحة، وهي تؤمن "إن الحرب فريضة في حالة الدفاع عن النفس والشرف والعقيدة.."إن قدرتها الهائلة، في أن تتأثر في نفسيات شخصية ذكورية، باسلة، واضحة في الرواية.

الإنتصار في الرواية: رواية "الظل الأسود"، إن الكاتب أراد فيها للتحدث عن إنتصار عميق في شخصية إياسو، ولكن الحقائق التاريخية، وسياقات الرواية السردية، من تغلب الشخصيات الأخرى عليه، وعزله من السلطة، واعتقاله المؤبد، والمقاسات القلبية العصيبة، طوال حياته، تنبئ عما يخالف الإنتصار.

فإذا، السوال مطروح لمن الفوز، للشر الذي يتمثل هيلاليسي أو غيره، والجواب في الرواية، إنه يريد أن الشر لا ينتصر أبدا، وطرائقه خدعة ومكر، وقتل ونهب، وأن الشر سيستحوذ على الخير، ماديا، إذا تسلح بأدوات القوة والتسلط، ولا يستطيع تقديرها على هذا السبيل، وإنما النجاح يقاس بمرجعية إنسانية، تحترم فيها عقيدة الآخر والرأي الآخر، وتلين عند الناس، ولا تستغل الدين لأجل الدنيا، وإذا أتينا لكيفية انتصار الخير فيها فنعرف أنه في أغلب الأحيان ينتصر معنويا، فاياسو، راض بكل قلبه بتفانيه للحق الذي يقوم لأجله، كما هو راض حينما يرى عند الشعب من الفرح، والسرور بعد معانات كثيرة، ويحتفل نجيب الكيلاني هذا الإنتصار في نهاية الرواية، من هروب هيلاليسي، واحتياجه إلى شعب اياسو، في محبته له، ومجتهداته لسببه، كأنه خسر خسرانا في اجتذاب دعم الشعب إلى مصلحته، كما هو الامر في اياسو، الذي لقي حتفه وهو سجين، يستمع إلى الهتافات المرتفعة المتلهفة إلى اياسو، الإمبراطور المخلوع، بسبب إسلامه.

خاتمة البحث

وقد إنتهيت إلى نهاية المطاف بمنة الله وتوفيقه، وأشكره شكرا يعصمنا به من الإرتياب، لما حباني بالنعمة الجزيلة، ولا تتم الصالحات إلا بها، وقد بحثت في صفحات هذه الدراسة، عن نجيب الكيلاني، وأدبه، وطرق أدائه، ومنهجه في الكتابة والفكر، آخذا روايتيه "الظل الأسود وملكة العنب" كنموذجين، حتى وصلت إلى نتيجة أن المحاولة في ترسيب التيار الإسلامي في الأدب العربي جبارة، ودور الكيلاني في تعميقه وتشعيبه رائد، أكثر من كل الأدباء الإسلاميين الأُخر، حرصا على تبرهن سيطرة الثقافة الإسلامية على الثقافات الأُخرى، وبخاصة الثقافة الغربية. وقد نجح نجيب الكيلاني في تقديم المُثل الأدبية الفنية لتحسينه وتطويره أي نجاح على أن نجاح الكاتب المُنَظِر معناه وضع بنية أساسية لقاعدة قوية لهذا المجال، وإخراجها من دائرة المستحيل. وبالوقوف على محطات حياته، ومواقفه من الأدب، وبالمقارنة مع معاصريه، وسابقيه، قد تمكنت للإلمام بفهمه للإسلام، ورغبته لإستيعاب مبادئه، كما عرفت أن أدبه كان في استمرار الصراع، أو المقاومة، ما يبدو أنه لا بد للمسلم، والإسلام من أن يكونا حذرين، لأن ما يحيطهما من القوات الطاغية، والطموحات المغرضة، تتحين فرصة إدخال الوهن والضعف إليهما، على أنهما أكبر التحديات الثقافية، في النظام العالمي الجديد فمجال الحوار فيه بين العدوين ضيق. كما اطلعت على جسارته للامثيلة، للتصدي بالأدب الإسلامي، وارتفاعه به إلى وسط فني، متذوق، الذي حوصر فيه ذوق الكثيرين من الناس. وذلك في حالة ذبذبة رأي الأدباء في الأدب وتعلقه مع الإسلام والدين وارتيابهم عن صلاحيته ومدى تطبيقه. أما بعض المجالات التي تعد عراقيل أو مشاكل الأدب الإسلامي، من المرأة، والجنس، والحرية، وغيرها في هذا الإطار، فتم دمجه في ادب نجيب الكيلاني، بشكل ناجح، بما رأى لذلك سبيلا إسلاميا بل متشوقا بحيث أصبح أدبه "ثورة على الأدب السائد في العالم العربي". ومن المثير جدا أن يلخص ما تم تنظيره، بأن استخذام الرسول صلى الله عليه وسلم،

الشعر الذي كان فنا وحيدا، في عهده وبعده بقليل، والفنون الأخرى من الخطابة، والكتابة، واستخدام الملوك في عهدي الأموي والعباسي للمقامات والرسائل وغيرها، لمجرد الأدب ولصالح الأمة والإسلام، يعطي إشارة واضحة، إلى أن الرواية والفنون الناضجة في العصر الحديث يمكن للمبدع استخدامها للدعوة وللأدب الجيد تاركا لجاهليتها.

أما هذه الدراسة عن الكيلاني من خلال روايتيه، فلم تكن دراسة عن شخصية أو روايتين فحسب بل كانت تفتيشا صادقا عن نفسيات الكيلاني ووجدانياته، وطموحاته في الأدب والفن الإسلاميين، وإذا حاولنا للتعمق والتبحر في كتاباته، ودراساته لوجدناها أفضل وسيلة إلى إمكانية كبيرة، لتطوير الأدب الإسلامي العالمي، كما هو الأمر عند "الأدب الإشتراكي" أو اليساري". وعلى الرغم من أنهما لا يتمثلان إلا "جانبا واحدا من المجتمع، يبقيان عالميا، محبوبا. ولا يجوز أن نرى مواقف الكيلاني في الأدب الإسلامي، نهائية، واخيرة، إلا أنها في سبيل التطور، والتدقيق، لكيلا يحاصر الأدب الإسلامي (الرواية) في بطولات الشخصية، وصراعاتها، المستمدة من التاريخ والواقع، بل أكثر حساسا، وغواصا إلى أعمق المشاعر الإنسانية من الحب، والتعاطف، والتضامن الذي لا يستنفر منه الآخر بل يقربه قربا، فيمتص رحيق الإسلام، وعبقه.

تناولي لرواية الظل الأسود، ورواية ملكة العنب، جاء إلى حد ما انتقائيا، على انه استطعت من خلال "ملكة العنب" اختبار الوقائع، طبقا للوثائق الموثوقة، والنادرة، والخوض إلى ما يعاني أصحاب "الدعوة الإسلامية" في مصر، وما يكابد الناس من الصعاب الجبلية من الفقر، وسوء الأمن، وقضية المرأة، وسوء الإدارة العسكرية التي لا تزال- حتى عند ما اكتب هذه الصفحات- ضغثا على إبالة. وقد أثارتني قدرة التنبؤ الروائية لهذه الرواية، والتي لا تقع إلا بالنظرة الثاقبة، للأحوال الإجتماعية والسياسية، ومصيراتها، وذلك، لقد تحولت سياسة مصر الراهنة، تحولا جذريا بحيث أصبحت الطائفة التي كان نجيب الكيلاني ينتمي إليها، وترددت مناقبها في أماكن كثيرة في الرواية ضمنيا، وظاهرا، كدعاة الحل الإسلامي قوة كبيرة وطاقة اجتماعية وسياسية في مصر، حتى

انتخب الناس أول رئيسهم البرلماني المدني في تاريخ مصر، رجلا ينتمي إلى هذه الطائفة الإسلامية في انتخاب نزيه. إلى جانب ذلك، حاولت تحليل الشخصيات الروائية، لاختبار اداء نجيب الكيلاني، الشخصيات الإسلامية، التي تنزلق فيه اقدام كثير من الروائيين، واستغلال مواهب كل شخصية من شخصياتها في سبيل بناء مجتمع مثالي، وتحليل الأحداث لأجد تحضيره لحدث من الأحداث الإسلامية، واختياره له بخاصة دون غيره من الأحداث السائرة لدى الروائيين العالميين، وتمكينه في قلب القارئ إلى جانب قيامي بنقد، وتقييم بعض الشخصيات والأحداث فيها بما لها من صلة بالإسلام والعقيدة، مثل المرأة وبعض أعمالها اليومية، التي يحرص الكيلاني أن يرسم بها، بمحك اسلامي.

وعلى نفس هذا المنوال كان تناولى للرواية" الظل الأسود"، من حيث التحليل والنقد، التي أخذناها نموذجا لإستشرافه عن حالة الشعب المسلم في العالم، المضطهد المظلوم، الذي يصبح ضحية الحسد، والتباغض، والإستبعاد بدون ذنب، وهذه القراءة التحليلية تقع عندما نقرأ تقارير عابرة، عن إصابات، وبليات المسلمين في ميانمار، التي قتل ولا يزال يقتل فيها الوف المسلمين بايدي البوذيين المتطرفين، بموافقة ذوي النفوذ. وفي تحليل هذه الرواية كان جل تركيزي على التاريخ، الذي كان يعالج بهذا الحدث المؤلم. وقد أدهشني الفرق الكبير، الموجود في التاريخ، المتجه إلى سبيلين متعاكسين، في تسطير الحقائق ونفسيات الرؤساء السياسيين، لأن المجازر الحادثة في اثيوبيا باسم الاثنوديني، والإعتداءات ضد المسلمين القصدية، لم تكن ما يلفت انتباه المؤرخين اللهم إلا ما كتب عنها المسلمون المتحمسون. وقد اتضح لي من بعض الرسائل التاريخية والوثائق أن الحقيقة تحتاج إلى فحص وبحث دقيقين لكي لا يُتهم الإسلام في تاريخ اثيوبيا، سببا لتشتيتها وتخلفها، بل كان هناك أفضل طرق للمسالمة والتعايش بين المسلمين والمسيحيين لولا الضغينة المدفونة في قلوب كل من المجتمعين، لأنها هي العقبة الكبرى في نمو وازدهار أمة من الامم، وقد زاد الطين بلة، اغتنام القوى من الاحوال الفوضوية، لتحقيق مآربها التافهة، باقتياد الناس إلى هوة المشاكل التى تتجرد عن المبادئ الإنسانية. وبتتابع تاريخ الحبشة للاسلام

والمسيحية، قد فهمت ان كلا من الاقوام في اثيوبيا كان له حق العيش، في أرض الحبشة، لأن كل واحد منهما وافد من الخارج، إلا الوثنيين الاصليين. ولا يبرر إخراج المسلمين من اثيوبيا، والمدبرات الدولية والمحلية، لأجله، حينما يوجد بديلا أوسع، وأرحب مثل التضامن الاجتماعي الذي يتمتع بالدموقراطية، والوحدة في التنوع، لان أكبر ما يوجد في التاريخ خطرا "هو الصراع الحضاري" من حيث التدمير، واكثر ما يو جد نفعا هو "الحوار الحضاري البناء" من حيث الأخذ والعطاء، فمنع حرية العقيدة، والتصرف الشخصي، العديم التسامح في مجتمع من المجتمعات المتعدد المشروبات، سيؤدي إلى انتهاك حرمة الإنسان، والقتل والنهب، لأن فرض الهيمنة على عقلية الإنسان بقوة، والإكراه به لا ينتج الا التصادم، والصراع. وقد كان ما ذهبت اليه، هو المقارنة بين التاريخ والرواية، فمقت بشخصيات الرواية في ضوء التاريخ، والأحوال السياسية انذاك، تحليلا، لكي أصل إلى تعقيدات الحالة التاريخية في اثيوبيا، من حيث العقيدة، ومن حيث عدم التسامح بدين آخر، ما ادى إلى السيطرة التامة للمسيحية والكنيسة في اثيوبيا، على الرغم من كثرة السكان المسلمين واعراض السياسيين عن احتياجات المسلمين. وقد انتهيت في تحليلها أن الإنتصار الذي يريد به الكيلاني، لإياسو، البطل الرئيسي ليس ما هو متعارف عليه لدى الناس من الغلبة والاستيلاء، بل هو ما يتبقى فيه من شرر الثورة الملتهبة، والكفاح المتواصل، والنضال المستمر، التى ستندلع بها شعلة موارية ضد كل ظالم مستبد، فالبطل الروائي يبقى حيا وميتا، عندما يهلك الحاكم الجبار، من وجه الارض بهلاكه.

وإن أصبت في شيئ فمن الله العزيز المتعال وإن أخطأت فمني ومن الشيطان وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على النبي المصطفى وآله واصحابه المتبعين، أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٧ شهر رمضان المبارك ١٤٣٣ هـ الموافق ٢٧ شهر يوليو ٢٠١٢ م

المصادر والمراجع

الكتب العربية

- أبو عزالة ،المشير عبد الحليم، الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠- ١٩٨٨م ١٩٩٣- ٩٤
- أحمد، يوسف، الإسلام في الحبشة، مطبعة حجازي ،القاهرة، ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م
- إدريس، سهيل، رواية الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت
- الأعظمي، سعيد، الندوي، أدب النثر العربي بعد الحرب العالمية الثانية، النزعات الجديدة في النثر الأدبي العربي بعد الحرب العالمية الثانية- مقالات الندوة
- أمين جمعة، عبد العزيز، أوراق من تاريخ المسلمين، ويكيبيديا الإخوان المسلمون، الموسوعة التاريخية الرسمية لجماعة الإخوان المسلمين.
- الأيوبي، ياسين، مذاهب الأدب معالم وانعكاسات، دار العلم للملايين،١٩٨٤
- باشا، صادق المؤيد العظم، رحلة الحبشة، تعريب : رفيق بك العظم و حقي بك العظم، مطبعة الجريدة، سراي البارودي، باب الخلق، سنة ١٩٠٨م
- البخاري محمد بن اسمعيل، الحافظ، الجامع الصحيح

- بريغش، حسن، محمد، في الأدب الإسلامي المعاصر– دراسة وتطبيق، مكتبة الحرمين، الرياض– البطحاء
- التنوجي، محمد، المعجم المفصل في الادب، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ١٩٩٩
- جبرا، ابراهيم جبرا، رواية السفينة، دار الآداب، بيروت، الطبعة الخامسة عام ٢٠٠٨
- حقي، يحي، رواية قنديل أم هاشم، مكتبة الاسرة، الإسكندرية.(مكتبة الاسكندرية)
- الحكيم، توفيق، الفن والادب، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحاروشركاءه
- حماد، مجدي، ثورة يوليو ٢٣ ، ١٩٥٢، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية،١٩٩٤
- حنان بنت جابر عبد الرحمن الحارثي، صورة المرأة في قصص نجيب الكيلاني، دراسة نقدية وتحليلية، السعودية، رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراه تحت اشراف عبد الله بن إبراهيم الزهراني، جامعة أم القرى كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا
- رياض، زاهر، تاريخ اثيوبيا، معهد الدراسات الافريقية، جامعة القاهرة. ١٩٦٦

- عبد القدوس، احسان، انا حرة" دار أخبار اليوم،قطاع الثقافة، جمهورية مصر العربية
- عبد الدايم، في الادب الاسلامي بين النظرية والتطبيق– دار الشروق، ٢٠٠٢
- عطية، محمد، أحمد، الرواية والسياسة دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، منتدى سور الازبكية.
- عمارة، محمد، تيار المرجعية الاسلامية في نموذج التقدم، دار الشروق، القاهرة
- علي مرزوق، حلمي، تطور النقد والتفكير الادبي الحديث في مصر للدكتور حلمي علي مرزوق دار المعارف طبعه الاول ١٩٦٧.
- عامر، كمال، أحمد، دور المصري والعربي في حرب تحرير الكويت، الجزء الاول، لواء الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين ٢٠٨
- عوض، ابراهيم لطفي، ظاهرة الركود التضخمي في الاقتصاد المصري، دراسة تحليلية، قسم الاقتصاد، كلية التجارة، جامعة الزقاقيق
- قرني، عزت، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، عالم المعرفة، ١٩٩٠
- الكيلاني، نجيب، مدخل الي الادب الاسلامي مكتبة مشكاة الاسلامية سلسلة كتاب الامة التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر
- الكيلاني، نجيب، إقبال الثائر الشاعر، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٧

- الكيلاني، نجيب، ملكة العنب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م
- الكيلاني، نجيب، الظل الأسود، الطبعة العشرون، كتاب المختار، حارة الجمل، القاهرة
- مباركي، جمال، الغرب في الرواية العربية، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في الادب العربي الحديث تحت اشراف الطيب بودربالة، ٢٠٠٩
- نجم، يوسف، فن القصة، دار الثقافة، بيروت
- نصر، عبد الحميد، نصر الدين ، مصر وحركة الجامعة الاسلامية من ١٨٨٢– ١٩١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٤
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري ابو الحسين، صحيح مسلم
- الهيثم، زعفان، (تحرير) الحركة النسوية وخلخلة المجتمعات الاسلامية المجتمع المصري نموذجا. منتدى سور الازبكية
- يونس علي، محمد محمد، أزمة اللغة ومشكلة التخلف في بنية العقل العربي المعاصر، دراسة في علم الاجتماع، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ١٤٢٥هـ

المقالات والجرائد

- أبو ملحة، محمد بن يحي، اسلامية الشخصية في روايات نجيب الكيلاني، مجلة الدراسات اللغوية والادبية،.

- أحمد ، بشير، ممالك الطراز الاسلامي في اثيوبيا (تاريخ منسي او تناسوه)، مكتبة الحدود السودانية، www.alaphblog.com
- الأمين ، المعتصم أحمد علي ، الديانة النصرانية عوامل الإستمرار والسيطرة السياسية
- البشير، الطيب، عبد الوهاب، السلام والتعايش الديني في اثيوبيا، جامعة افريقيا العالمية / مركز البحوث والدراسات الافريقية، موقع منارات إفريقية
- البشير،الطيب، عبد الوهاب، محركات الصراع في اثيوبيا ودورها في التعايش الوطني الاثيوبي، موقع منارات افريقية
- البشير، الطيب، عبد الوهاب، التعددية الدينية في اثيوبيا، تجارب التعايش و الصراع الإثنو ديني ومستقبل الوحدة الوطنية، مركز البحوث والدراسات الاسلامية، جامعة افريقيا العالمية
- بريغش، حسن، محمد، رواية: ملكة العنب رؤية تحليلية رابطة ادباء الشام. www.odabasham.net
- بريغش، حسن، محمد، نجيب الكيلاني رائد القصة المعاصرة ١- ٢ موقع مكتبة الثقافة الاسلامية، مجلة البيان
- حسن، عمار علي، النص والسلطة والمجتمع : القيم السياسية في الرواية العربية، الاهرام الرقمي
- حمداوي، جميل، الرواية السياسية والتخييل السياسي، دنيا الرأي

- الداغر، مجدي، بعد توغل الجيش الاثيوبي في الصومال ماذا عن وضع الاقليات الاسلامية في بلاد النجاشي شبكة النبأ المعلوماتية
- السرجاني، راغب، المسلمون في اثيوبيا واريتريا– موقع قصة الاسلام
- السرجاني، راغب، الحبشة والعالم الاسلام...عداوة قديمة، موقع قصة الاسلام
- الشيخ، غنيمي، رأفت، أستاذ بقسم التاريخ والمكتبات، هيلاليسي والحبشة
- القميحة ، جابر، شعر نجيب الكيلاني بين مقتضيات الرسالة وافاق التطور، مجلة المجتمع العدد ١٩٩٩. ١٢/ ٢٠١٢/٠٤
- القاسمي، علي، الصورة النمطية للمرأة في الرواية العربية، العرب الأسبوعي،السبت١٤/ ٧/ ٢٠٠٧
- القوص، محمد عبد الشافي، حوار مع نجيب الكيلاني اجراه ، نشر في مجلة (الادب الاسلامي. عدد (٩–١٠، عام ١٤١٦هـ).المواقع شبكة الالوكة
- الكيلاني، نجيب، الادب الاسلامي: وعلاقته بالمجتمع والحياة، مجلة الجامعة الاسلامية العدد٦٢، شبكة المنهاج الاسلامية، معهد اللغة العربية
- عبد العزيز، شريف، اثيوبيا واسباب التصعيد ضد مصر، منتدي مفكرة الإسلام، www.islammemo.cc
- محمد، حسين علي، قراءة في رواية ملكة العنب لنجيب الكيلاني، منتديات ستار تايمز،www.startimes.com
- الاحباش وعدائهم للاسلام www.arabic.military.com (اثيوبيا)

- التواصل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في اثيوبيا وانعكاساته على شمال وادي النيل– النسابون العرب، www.alnassabon.com
- الصراع ما بين الاسلام والصليب في الحبشة مقال نشر في موقع Www.jeberti.com
- مجلة الادب الاسلامي
- مجلة المشكاة
- جريدة الشرق الاوسط

الكتب الإنجليزية

- ***Ahamad Moussali***, Wahhabism, Salafism and Islamism, Who is the enemy? The document produced by the financial assistance of the European Union, January 30, 2009
- ***Harold G. Marcus***, A History of Ethiopia, University of California press, Berkeley, Los Angeles. Oxford. 1994
- ***John R.Bradly***, Inside Egypt, the Land of the Pharaohs on the brink of a revolution, Palgrave macmillan, New York.

  Michael Geddes, The Church History of Ethiopia, the Ages Library Historical. Books for the Ages, Ages Software, Albany, or USA.
- ***Saheed A. Adejumobi***, The History of Ethiopia, Greenwood press. Westport, London (The Greenwood histories of modern nations, ISSN 1906-2905. First published in 2007
- ***Zohurul Bari***(Edior), Modern Egypt, Culture, Religion and Politics, Shipra 2004**.**

- The Arab Human Development Report 2005, towards the rise of women in he Arab world, United Nations Development Program
- Egypt and Israel, Past, Present and Future, The Israel Project, Jerusalem Offce, www.theisraelproject.org.

المواقع

- www.alaqeelabumustafa.com
- www.annaabaa.com
- www.alephblog.com
- www.alwatnvoice.com/articles
- Arabic.alminhaj.net
- books.Islamww.com
- CCN Arabic.com
- http; / digital.ahram.org.eg/articles
- www.ikhwanwiki.com
- najibelkilany.wordpress.com
- www.islam4africa.net
- www.islammemo.cc
- http/ islamstory.com
- http/ islamstory.com
- www.hannasabri.maktoobblog.com

The Socio – Political Issues in the Novels *"Al – zillul Aswad"* and *"Malikatul 'inab"* of Najeeb Al Keelani:

An analytical and critical study

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University

in partial fulfilment of requirements for

the award of the degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

MUHAMMAD ABDUL KAREEM K.T.

Under the supervision of

Dr. MUJEEBUR RAHMAN

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi – 110067

2012